

أولاد الشتيتل

من حُدود المُستوطنة
إلى فلسطين



د. حازم صابوني

أولاد الشتيتل ،

من حُدود المُستوطنة
إلى فلسطين



Shtetl's Children ,
from the **Pale**
to **Pale**_{stine}

5/ 2008 MHS

المقدمة

في عام 1962 ، وأنا في مطلع العشرين من عمري ، وصلت إلى برلين الغربية لبدء دراستي الجامعية . في ذلك العام ، تعرضت لواقعة صغيرة لم تفارق ذاكرتي إلى يومنا هذا . كنت أجلس في أحد المقاهي مع زميل لي نتجاذب أطراف الحديث بالعربية . بعد حوالي نصف ساعة بادر شخص ، يجلس إلى طاولة مجاورة لنا ، بسؤالنا بلهجة دمشقية عتيقة : " شو الشباب من الشام ؟ " . كان سؤاله مفاجأة لي لسببين ؛ الأول تواجد شخص من بلدنا في برلين ، في وقت كان أعداد السوريين في بلد غربتنا أقل من القليل . أما الثاني فكان استغرابي من سبب انتظاره هذه المدة الطويلة نسبياً لي طرح علينا هذا السؤال . أذكر أنني سألته : " حضرتك من دمشق ؟ " ورد بالإيجاب . وبعد عدة دقائق من المجاملات الاعتيادية قাদنا الحديث ، كعادة العرب ، إلى السياسة . وهنا بدأ الرجل بهجوم عنيف على عبد الناصر وعلى تحالفه مع الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية وخطأه بتأميم القناة مبرراً هجوم المحور الثلاثي آنذاك على مصر كردّ عملي وضروري على هذا الطاغية . وقد جال في خاطري ، أثناء حديثه المنفعل ، أنني قد أتفهم هذا الموقف لو كان هذا الشخص من المعارضين المصريين أو من أنصار الملك المخلوع ، ولكنه يدعي أنه سوري ولهجته دمشقية . وهنا لم أتردد في سؤاله مرة أخرى : " أمتأكد أنت أنك سوري ومن دمشق ؟ " . وأجاب الرجل بلهجة متحدية : " في الحقيقة لا ، أنا يهودي من مواليد الشام هربت إلى إسرائيل ، ثم غادرتها للإقامة والعمل في ألمانيا " .

أذكر أن الجو تكهرب فجأة . وبينما كنت وزميلي بصدد دفع حسابنا تمهيداً للمغادرة على عجل ، قال لنا بلهجة واثقة : " إسمعا ، نحن في إسرائيل قرابة الثلاثة ملايين يهودي يمتلكون هذا (وأشار إلى صدغه) وأنتم مئة مليون عربي تمتلكون هذه (مشيراً إلى عضلة يده) . الأفضل لكم أن تتعاونوا معنا وسنركع لنا ولكم أمريكا والاتحاد السوفياتي معاً " . أجبته ، قبل أن أغادر : " هكذا إذاً ، تريدون مئة مليون أجير في خدمتكم ؟ ثم من قال لك إننا نريد إركاع هاتين الدولتين أو غيرها من دول العالم كما تطمحون ؛ وعموماً كان الأجدر بك عندما تتحدث عنكم معشر اليهود أن تشير إلى هنا (ووضعت يدي على الجيب الذي احتفظ فيه بمحفظة نقودي) " .

في طريق عودتي إلى مسكني ، كنت أسائل نفسي ، ماذا يريد أمثال هذا الشخص فعلاً ؟ هل ما عبّر عنه هو رأي شخصي أم أيديولوجية مشتركة يتبناها معظم يهود العالم أينما كانوا ؟ هل يرى أو يرون في العرب مجرد أدوات بيولوجية تتحرك وفق خلايا أدمغتهم ، ثم لماذا يريد أو يريدون إركاع الشعوب الأخرى ومنها من كان السبب في وجودهم وبقائهم على أرضنا ؟ حملتُ معي ذكرى هذا الحديث أكثر من أربعين عاماً كنت منشغلاً خلالها بعملتي وتصريف حياتي اليومية . واليوم ، وبعد أن تحرّرت أكثر مما

مضى من تلك الواجبات ، أجد أن الوقت قد حان لفهم ما قيل لي آنذاك في أحد مقاهي كورفورستن شتراسه في برلين . من هم هؤلاء ومن أين جاؤوا إلينا ؟

ما سأكتب عنه ليس تاريخاً بمفهومه التقليدي ، بل هو أقرب ما يكون إلى محطات زمنية مُحددة اخترتها وفق تسلسل معين من التاريخ القريب والمعاصر . مصادره ومراجعته ، لحسن الحظ ، متاحة وموثقة إلى حدّ بعيد بعكس التاريخ القديم . فالإحصائيات والاقتباسات والسير الذاتية لزعماء وقادة إسرائيل التي أوردتها (مواقعهم السياسية ، أسماؤهم الأصلية ، مكان وزمان ولادتهم وهجرتهم وغيرها) متوافرة في الكتب والمجلات ودوائر المعارف العالمية وأرشيف كبريات الصحف ، كما في مواقع وزارة الخارجية والكنيسيت الإسرائيليين وغيرها ، على سبيل المثال لا الحصر .

البدايات

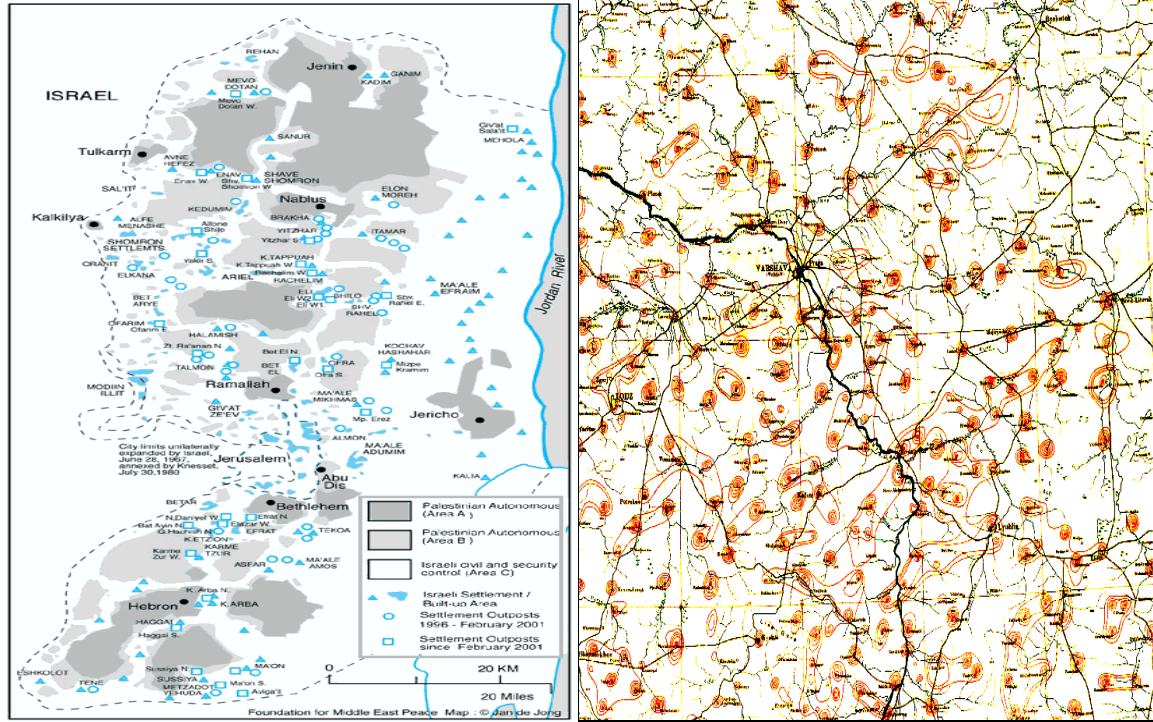
لا بد أن تستوقفك ، في يوم من الأيام ، مقولة أو جملة عابرة تقرأها وتترك في نفسك تساؤلات عديدة . ذلك ما حدث عندما قرأت ما كتبه الفيلسوف والشاعر الألماني يوهان غوتليب فيشته¹ في إحدى المناسبات : " وإنني لا أرى وسيلة أخرى لحماية أنفسنا منهم إلا بالاستيلاء على أرض ميعادهم ومن ثم ترحيلهم إلى هناك " . السؤال المحير ، ما الذي حمل هذا الرجل على قول مثل هذا الكلام ؟ وما الذي حمل أمثاله من الفلاسفة والكتاب والشعراء والمفكرين والموسيقيين والسياسيين ورؤساء الدول في شتى أنحاء العالم ومن مختلف التوجهات الأيديولوجية ، وعلى مرّ العصور ، أن يقولوا في اليهود مثل أو أكثر ما قاله فيشته ؟ شكسبير ، فولتير ، مونتيسكيو ، فاغنر ، كانت ، نيتشه ، برنارد شو ، مارتين لوتر ، هنري فورد ، توماس أديسون و كاترين الثانية وألكسندر الثالث وجورج واشنطن وبنيامين فرنكلين ، والقائمة أطول بعشرات المرات . فمن المعروف أن معظم مكونات هذه النخبة تختلف عن بعضها البعض في المكان وفي الزمان . وغالباً ما يفرق بينها العرق والعادات والتقاليد الاجتماعية والمنظور الأيديولوجي والتراث التاريخي ولا يجمعها إلا رأي موحد في اليهود . والأكثر غرابة ، وجود العديد من المفكرين والكتاب اليهود المتنورين من أمثال أوسكار ليفي و نوام تشومسكي والحاخام ميكل ليرنر وإسرائيل شاهاك ونورمان فينكلشتاين وأميرة هاس وفكتور أوستروفسكي وغيرهم كثير ممن مارسوا النقد الذاتي و كتبوا عن اليهود وانتقدوا تصرفاتهم وأخلاقهم .

لنتمعن بروية فيما قاله فيشته ثانية : " نريد حماية أنفسنا منهم " . قال ذلك في فترة من حياته كانت تهيمن على الأرض الأوروبية ثلاث إمبراطوريات عظمى ، بروسيا والنمسا وروسيا بأعداد سكانها الهائل نسبياً مقارنة بعدة ملايين من اليهود يتوزعون فيها . هل يبدو الأمر منطقياً أن تخشى هذه الإمبراطوريات الكبرى الثلاث حفنة من اليهود تعيش في جزر مبعثرة بيت شعوبها ؟ وبديهي القول إن خشية هذا الفيلسوف على أوروبا لم تكن عسكرية بل كانت ، على الأرجح ، أخلاقية واقتصادية واجتماعية . منذ متى كان الفلاسفة والمفكرون ، من أمثال فيشته ، من دعاة الغزو والاحتلال واستخدام القوة ؟ " علينا أن نرسلهم إلى أرض ميعادهم ولو اضطررنا إلى غزو تلك الأرض ووضعهم هناك بالقوة " . وأغلب ظني ، لو عرف فيشته أن أمنيته ستتحقق بعد قرن من وفاته في اليوم الثاني من تشرين الثاني \ نوفمبر 1917 ، على يد إمبراطورية أخرى كانت لاتغيب عنها الشمس ، لمات مرتاح البال على أوروبا وشعوبها .

أولاد الشتيتل ؟

¹ Johann Gottlieb Fichte (1762 - 1814)

أعترف مسبقاً بأنني لم أكن أعرف ماهي الشتيتل وماذا تعني ² . من يعرفها عن ظهر قلب هم غالبية المتواجدين حالياً في الطرف الغربي من نهر الأردن . سيشرحون لنا أن السواد الأعظم منهم جاؤوا من هناك . وإذا تعذر سؤالهم ، فلا بأس من استشارة أحد المعاجم أو دوائر المعارف والتي ستخبرنا أنها باللغة اليديشية تعني " القرية اليهودية أو المدينة الصغيرة " في أقصى شرق أوروبا . أو بالأصح تلك الجزر السكانية المعزولة والمقطعة عن بعضها البعض في غرب وجنوب روسيا القيصرية ، فيما كان يسمى " حدود المستوطنة " ³ . وفي أيامنا هذه ، يحتفظ معظم اليهود في إسرائيل وخارجها بذكرياتهم عن الشتيتلات إما لأسباب تاريخية أو اجتماعية أو مادية أو ربما للشقاء من عقد نفسية مزمنة ، شأنها شأن الهولوكوست والإكسودوس والترانسفير وغيرها . هذه العقد النفسية الجماعية دفعت من عاشوا في تلك الشتيتلات المنعزلة ، ومن بعدهم أولادهم وأحفادهم ، لإحيائها من جديد في قرى ومدن الضفة الغربية والقطاع عن طريق عزلها ومحاصرتها بالجدران الفاصلة والحواجز العسكرية والأسلاك الشائكة والمستعمرات لتقطيع أوصال المجتمع الفلسطيني في أيامنا هذه (الشكل 1) . في اعتقادهم ، على الأرجح ، أنها تشكل لهم صدمة نفسية اجتماعية قد تشفيهم من إرثهم التاريخي البغيض وتحقق في الوقت ذاته مآربهم التوراتية والتلمودية .



الشكل (1) : أ - مخطط من الأرشيف لبعض الشتيتلات اليهودية بالقرب من وارسوا بولندا (منتصف القرن التاسع عشر) .
 ب - مخطط الوضع الراهن للمناطق وللقرى الفلسطينية في الضفة الغربية .

² Shtetl
³ Pale of Settlement

ويمكنني هنا الادعاء إن معظم المشكلات والصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها وتشهدها المنطقة العربية خاصة والشرق الأوسط عامة جاءت من تلك البؤرة من العالم . وهذا لا يعني ، بطبيعة الحال ، أن هذه البؤرة ولدت كظفرة في سياق التاريخ ، بل جاءت نتيجة مجموعة تراكمات وأحداث تاريخية قديمة ومستمرة في العديد من أرجاء العالم ؛ إلا أن المخاض كان في تلك المنطقة التي انطلقت منها لاحقاً العديد من الأحداث المأساوية والعاصفة . البؤرة هي " حدود المستوطنة " المكونة من مجموعات الشتيتلات المتناثرة فيها ، أما الأحداث الفعلية فقد بدأت في عام 1791. ففي الفترة الواقعة ما بين منتصف القرن الثامن عشر تقريباً وانطلاق الثورة البلشفية ، حكم الامبراطورية الروسية فعلياً سبعة قياصرة ، جرت في عهد خمسة منهم ⁴ بعض الأحداث الداخلية والخارجية كان لها تداعيات كبيرة على الوقائع التي تلت .

- الحدث الأول ، جرى في عهد الامبراطورة كاثرين الثانية حين أصدرت بتاريخ 23 كانون أول 1791 ديسمبر قراراً بتحديد رقعة في غرب إمبراطوريتها المترامية الأطراف سمحت بموجبه لليهود التواجد فيها بشكل شبه حصري ومنعتهم من التواجد في أماكن أخرى من روسيا ، إلا من بعض الاستثناءات القليلة .

- الحدث الثاني ، كان في عهد الامبراطور نيقولا الأول عندما فرض الخدمة الإلزامية العسكرية على الشباب اليهود في روسيا .

- أما الثالث ، فكان اغتيال الامبراطور الإسكندر الثاني في 13 آذار/مارس 1881 وما تلاه من أعمال عنف وشغب بين الفلاحين الروس واليهود في أعقاب الاغتيال .

- وأخيراً الرابع ، عندما صدرت قوانين أيار 1 مايو المؤقتة عام 1882 إبان حكم الامبراطور الإسكندر الثالث .

كاثرين الثانية و حدود المستوطنة

تشكلت هذه الرقعة الجغرافية كجزء من الامبراطورية الروسية لمدة تقارب مئة وثلاثين عاماً (ما بين نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن العشرين) ؛ وامتدت حدود المستوطنة من غرب روسيا وحتى أواسط أوروبا ، ومن بحر البلطيق شمالاً إلى البحر الأسود جنوباً . وبلغت مساحتها ، في المراحل الزمنية المتأخرة ، ما يعادل (مليون كيلومتر مربع) أو 20% من أراضي روسيا في القارة الأوروبية .

⁴ Catherine II (1762 - 1825) ، Nicholas I (1825 - 1855) ، Alexander II (1855 - 1881) ،
Alexander III (1881 - 1894) ، Nicholas II (1894 - 1917) .

لقد شهد حكم كاثرين الثانية توسعاً ملحوظاً للإمبراطورية ، بعد ضمّ أراض جديدة إليها من الغرب والجنوب . فبعد حربها مع الامبراطورية العثمانية ، تمكنت روسيا من الوصول الى البحر الأسود جنوباً وضمّ شبه جزيرة القرم (Crimea) إليها . أما التوسع غرباً فكان نتيجة للتقسيم المتوالي لبولندا نتيجة ضعفها المتزايد . ففي عام 1772 ، قررت جارات بولندا الأقوياء ، روسيا والنمسا وبروسيا تقسيمها ، وحصلت روسيا بموجبها على أجزاء من بلاروسيا (روسيا البيضاء) وليفونيا . وفي عام 1793 تمكنت روسيا من توسيع امتدادها في الأراضي البولندية وعلى معظم بلاروسيا وأوكرانيا . أما في عام 1795 فقد زالت بولندا آنذاك كلياً من الخارطة السياسية . ووفق المؤرخين فإن حدود المستوطنة بالتقريب كانت تشتمل على الحدود التاريخية لما كان يعرف بكونونويلث بولندا- ليتوانيا والتي كانت تضمّ أجزاءً كبيرة من دول معاصرة هي بولندا وليتوانيا ولاتفيا وبلاروسيا وأوكرانيا ومولدوفا وأجزاء من غرب روسيا (الشكل 2)

هذا التوسع الجغرافي والديموغرافي أضاف للإمبراطورية أراض جديدة وعزّز مكانتها السياسية وخلق لها ، في الوقت ذاته ، مشاكل جديدة . فقد أصبحت روسيا في تماس مباشر مع إمبراطوريتين كبيرتين بروسيا والنمسا ، كما أصبحت أقل تجانساً من الناحية العرقية والإثنية بسبب دخول البولنديين والأوكرانيين والبلاروس والليتوانيين ومزيد من اليهود في نسيجها الاجتماعي . والثابت تاريخياً ، أن اليهود كانوا دوماً وأبداً مصدراً للإزعاج لمن حولهم من شعوب وأعراق العالم باعتبارهم يشكلون صدمة ثقافية واجتماعية واقتصادية لمحيطهم غير اليهودي⁵ ، وإلا فيصعب علينا تفسير القرار الذي أصدرته الامبراطورة كاثرين الثانية في عام 1791 بإنشاء حدود المستوطنة ، حدّدت بموجبه لليهود العيش والعمل فيها . وتعبير آخر ، إنها قامت بتقييد حركتهم وتنقلاتهم وعزلهم ، قدر المستطاع ،

⁵ تصف الموسوعة البريطانية في الاصدار الحادي عشر لعام 1910-1911 وملحقه لعام 1922 ، يهود بولندا على النحو التالي " ... إن غالبيتهم العظمى من اليهود الشرقيين (شرق أوروبا) الذين يختلفون عن السكان باللغة والدين والعادات . لغتهم هي اليديشية (الأقرب إلى العامية الألمانية) . ألبستهم خاصة وغريبة . عاداتهم القذرة وسلوكهم المنحط ليسا أوروبياً ولا معاصراً ... اليهودي (الأوروبي) الشرقي هو بالأساس إما تاجر أو رجل أعمال ، ونادراً ما يكون منتجاً . وهو في العادة إما وسيطاً أو سمساراً . في المدن يمتلك اليهود معظم المتاجر ، إلا أنهم عرق منعزل مكروه ومحتقر من بقية الشعب . وهم متعصبون لديانتهم ذات الشكل البدائي لليهودية ... "



الشكل (2)

(حدود المستوطنة الروسية في القرن التاسع عشر . قسّمت إدارياً إلى عدد من الولايات (المحافظات) كان أهمها : Kovno , Vitebsk , Vilno , Grodno , Minsk , Mohilev , Plock , Warsaw , Radom , Lublin , Poltava , Kherson , Bessarabia , Bikovina , Kiev , Volhynia , Kielce) وتتوزع فيها منات الشتيتلات اليهودية

عن باقي شعوب وإثنيات امبراطوريتها وتركهم حيث كانوا متواجدين في الأصل ⁶ .

وللمفارقة ، كانت كاثارين قد أصدرت في العام الثاني من توليها الحكم (عام 1763) قراراً فريداً من نوعه آنذاك يسمح بموجبه للغرباء بالهجرة إلى روسيا والاستيطان في أي بقعة يرغبون العيش فيها . ويتعهد القرار بدفع نفقات السفر للمهاجرين الفقراء منهم واعفاءات ضريبية للصناعيين وأصحاب الأعمال والاعفاء من الخدمة العسكرية والمدنية لمن لا يرغب في ذلك . والملفت للنظر إحدى فقرات قرارها المتعلقة بممارسة الحرية الدينية " .. إننا نضمن لجميع الغرباء القادمين إلى إمبراطوريتنا ممارسة دياناتهم بحرية ، من دون قيد أو شرط ، تبعاً للأسس المتعارف عليها في معابدهم . كما نضمن لهم حرية بناء معابدهم ... " كما أصدرت في عام 1772 قراراً يضمن حرية الدين وحرمة الممتلكات لجميع رعايا روسيا وتأكيداً لليهود باعتبار أن المبادئ الإنسانية لجالاتها لا تسمح باستثناء اليهود وحدهم من الامتيازات المقدمة للجميع ⁷ .

⁶ Antisemitism: Its History and causes, Bernard Lazare , 1894

⁷ The Jewish Encyclopedia

لننظر أيضاً إلى القرارات التي أصدرها قيصر آخر هو الإسكندر الأول (1801 - 1825) في عام 1804 ، ومنها ما ينسجم مع تطلعات اليهود ويحفظ حقوقهم ومنها ما يحد من نشاطاتهم بما يحفظ الاحتياجات الأساسية لبقية المواطنين :

- يسمح للأطفال اليهود بالدراسة في جميع المدارس العامة والثانويات والجامعات في روسيا و بالشروط ذاتها المطبقة على الأطفال الآخرين .

- يمنع الطلب من التلاميذ اليهود الارتداد عن دينهم و إجبارهم على دراسة مواضيع تتعارض مع معتقداتهم - إذا ما رفض اليهود ، رغم هذا التشجيع ، إرسال أولادهم إلى المدارس العامة (الحكومية) فعليهم بناء مدارسهم الخاصة وعلى نفقتهم . ولهذا الغرض ستفرض عليهم ضريبة خاصة . ويجب أن تتضمن مناهجهم دراسة واحدة من اللغات البولندية أو الروسية أو الألمانية .

- يمنع أي شخص من مضايقة اليهود أو إزعاجهم في الأمور المتعلقة بممارسة عباداتهم وفي الحياة العامة سواء بالقول أو الفعل . وسوف ينظر في شكاويهم ، أياً كانت ، أمام القضاء ووفق القانون المطبق على جميع مواطني روسيا ...

كيف لنا إذاً أن نفسر القرار الأول المتسامح لإمبراطورة مستنيرة ومن ثم قرارها اللاحق ، بعد ثلاثين عاماً من تجارب الحكم ، بعزل اليهود حصراً في حدود المستوطنة وتقييد تحركاتهم فيها ؟ لفهم طبيعة التشدد الذي مورس أحياناً على اليهود ، لابد من شرح سريع لأوضاع المجتمع الروسي في حقبتنا ما قبل وما بعد " التحرر والانعتاق " 8 .

فتبعاً للعديد من المؤرخين ، كانت الحياة في روسيا بشكل عام أشبه بسجن كبير ، خلف قضبانه تعيش طبقة اجتماعية من الفلاحين يشكلون ما يقرب من 90 بالمئة من أعداد السكان . أما خارجه فهناك طبقتان من الكهنة و النبلاء ، وكانت هاتان الطبقتان مرتبطتين بشكل أو بآخر بطبقة الفلاحين . أما الطبقة الحرة من كل قيود وارتباطات فكانت طبقة اليهود .

كانت القيود المفروضة على فلاحي الإقطاع تلاحقهم من المهد إلى اللحد . الارتباط بالأرض كان يمنعهم من الحركة خارج حدودها . فهم لا يمتلكون أي شيء سوى المقومات الأساسية التي تبقيهم على قيد الحياة . وحياتهم موهوبة بالكامل لمالك الأرض الإقطاعي . لم تكن طبقة النبلاء في قصورها تمارس أي عمل بالمفهوم الحقيقي ، والقيود المفروضة عليها كانت ذات طابع اجتماعي فقط . وهكذا لم يبق لأحد دور الوساطة بين النبلاء والفلاحين سوى للطبقة الوسطى من اليهود . ومقارنة بجهل وأمية الفلاحين ، كان الحاخامات يحثون رعاياهم على قراءة التوراة والتلمود حتى لا يفقدوا صلتهم بتاريخهم وتراثهم اليهودي . كانت معرفة القراءة والكتابة ، بلا شك ، عاملاً مساعداً مكنهم من شغل مواقع

الوساطة وملء الفراغ بين هاتين الطبقتين الاجتماعيتين - الفلاحين والملأك النبلاء - وبالتالي زودهم بحرية الحركة في هذه المنظومة الإقطاعية .

إن عمل غالبية اليهود كوسطاء قد وضعهم خارج نطاق الرقابة الفعلية أولاً وفي الواجهة أمام الفلاحين ثانياً . وكان لابد من غياب وضعف الرقابة الفعلية على السماسرة اليهود ، و لكونهم على تماس مباشر مع الغالبية الساحقة من الشعب ، أن يزيد من حدة العداء لهم ومن ثم التصادم بينهم وبين طبقة الفلاحين المغلوبة على أمرها .

وكما يشير إلى ذلك العديد من الكتاب والمؤرخين ، فإن أعمال الوساطة والسمسرة تتلاءم مع السمات المميزة لليهود . يقول الإشتراكي بر بوروخوف ، أحد أعمدة الصهيونية ، في ذلك ⁹ : " إن الغالبية العظمى من غير اليهود تكسب رزقها من الطبيعة (كالفلاحين والصيادين ومربي المواشي) ... أما غالبية اليهود فتكسب رزقها مباشرة من اناس آخرين (كالمصرفيين و رجال الأعمال والوسطاء) " . فالبنية الطبقية داخل المجموعات اليهودية تشكل هرمًا مقلوباً ، قاعدته أقلية عمالية منتجة وغالبية تمارس الإنتاج الاستهلاكي الهامشي . ويستشهد على ذلك من إحصاء جرى في روسيا القيصرية في عام 1897 ، والذي يشير إلى أن نسبة اليهود العاملين في مجال الزراعة لا تزيد على 0.6 % من إجمالي العمال الزراعيين في حين أن نسبة العاملين منهم في مجالات المشروبات الروحية والتبغ ، الملابس ، المجوهرات هي 38.3 % ، 48.1 % و 66.5 % من إجمالي العاملين في هذه المجالات وعلى التوالي . ويخلص بوروخوف إلى أن هذه السمة الخاصة لدى اليهود تميزهم عن بقية الشعوب ؛ و تشكل إحدى الأمراض المزمنة في التاريخ اليهودي . ومن المفارقة أن يلتقي رأي هذا الإشتراكي اليهودي الروسي مع رأي الرأسمالي المسيحي الأمريكي و الصناعي الشهير هنري فورد ¹⁰ : " إن فلسفة اليهود المتعلقة بالمال لا تقوم على أساس - صنع المال - بل على أساس - الحصول على المال - والفارق بين هاتين الفلسفتين أمر أساسي ؛ وهذا ما يفسر كون اليهود ممولين وليسوا من رواد الصناعة " . ولنتذكر أيضاً أن المصلح الديني مارتن لوتر كان قد تطرق إلى الموضوع نفسه قبل ثلاثة قرون ونصف القرن من بوروخوف وفورد عندما قال ¹¹ : " أعطوا الأقوياء من الشباب والشابات اليهود المدارس والفؤوس والمعاول والرفوش والمغازل واجبروهم على اكتساب خبزهم من عرق الجبين مثل كل أبناء آدم " .

The Economic Development Of the Jewish People , Ber Borochoy , 1916 ⁹

The International Jew , Chapter 2 , Henry Ford ¹⁰

On the Jews and their Lies , Martin Luther , 1543 ¹¹

لقد سمح ضعف الرقابة على حركة اليهود وطبيعة النشاطات الاقتصادية التي يمارسونها إلى استغلال بشع لفلأحي روسيا القيصرية السدج . فهم جامعو الضرائب لطبقة النبلاء والمرابون وبائعو الخمر ومالكو الحانات والمتحكمون بتجارة المواد الأولية . كان اليهود في نظر طبقة الفلاحين الأدوات التي يستخدمها النبلاء لاضطهادهم . وهناك العديد من الشواهد على طبيعة العلاقات الاقتصادية بين هاتين الطبقتين الاجتماعيتين . يذكر جورج بت- رفرز 12 : " كانت روسيا محط أنظار خاص لغريزة المرابين من طبقة اليهود ، وذلك بسبب التبذير والعجز الكبير لفلاحيتها الأميين وعدم وجود طبقة متوسطة تنافسها " . فبالنسبة للمرابي اليهودي لم يكن هذا التصرف ، في قرارة نفسه ، عملاً لا أخلاقياً لأنه ، ببساطة ، ينفذ وصية " يهوه " 13 كما وردت في كتاب التثنية من التوراة 23: 19- 20 : " لا تتفاضوا فوائد عما تقرضونه لإخوتكم من بني إسرائيل ، سواءً كانت القروض فضة أو أطعمة أو أي شيء آخر . أما الأجنبي فأقرضوه بربا . إنما إياكم إقراض أخيكم بفائدة " . وفي المقابل ، كان الفلاح الروسي يعرف تماماً بهذه الوصية التمايزية الدينية والتي تصنفه كأجنبي على أرضه في نظر مقرضه اليهودي . الفلاح الروسي البسيط والأمي لم يقرأ بالطبع عن "شيلوكية" Shylockian تاجر البندقية لشكسبير ، والتي رسم ملامحها قبل قرنين من قرار الإمبراطورة الروسية بعزل اليهود عن شعبها في نطاق حدود المستوطنة ، إلا أن مثقفي روسيا لا بد أنهم قرؤوها وتفهموا دواعي قرار إمبراطورتهم لهذا العزل .

وماذا عن التجارة ؟ كان لتعامل اليهود بالربا والفوائد وتحكمهم بتجارة المواد الأولية له أيضاً تأثير على المنافسة الاقتصادية . فالتاجر المسيحي كان مضطراً لرفع أسعاره لتغطية تكلفة الفائدة المضافة مقابل أسعار التاجر اليهودي . كما أن تحكم اليهود بالمواد الأولية يجعلهم يرجحون بني جلدتهم على الآخرين ولهذا أيضاً انعكاساته الاقتصادية والتنافسية . ففي عام 1872 ، على سبيل المثال ، كان اليهود يسيطرون على 90 % من صناعة تقطير الكحول و 56 % من مناشر الأخشاب و 48 % من إنتاج التبغ و 33 % من مصانع السكر (كان اليهودي الروسي لازار برودسكي يلقب آنذاك بملك السكر) . ويلاحظ مدى هيمنة اليهود على التجارة من خلال إحصائية لنسبة تزايد تجارهم في مدينة فيلنا الليتوانية في أقل من سبعين عاماً . ففي عام 1806 كانت نسبتهم 22.2 % من إجمالي التجار ، لترتفع إلى 75.6 % في عام 1827 ولتبلغ 86 % في عام 1875 14 . وبالطبع ، ليس من المستغرب أن يثير مثل هذا الخلل حفيظة أهالي المدينة وفعاليتها الاقتصادية .

The World Significance of the Russian Revolution , George Pitt-Rivers , 1920 12

رب العبرانيين Yahweh 13

Jews of Lita (Lithuania) , Israel Kloizner 14

وإضافة إلى ذلك ، كان اليهود تاريخياً يتحكمون بتجارة الخمر وبالحانات وأدى أيضاً إلى مزيد من الكراهية لهم والاحتكاكات بين الطرفين . ويذكر المؤرخ إسرائيل كلويتسرن إنه في عام 1633 طالب رؤساء الجماعة اليهودية في مدينة فيلنا بمزيد من الحقوق لهم ، وبالفعل فقد أصدر الملك فلاديسلاف الرابع ما يسمى - إعلان الحقوق - لليهود تضمن للمرة الأولى تأسيس منطقة خاصة لعيش اليهود ، وهو ما عرف فيما بعد بمصطلح الغيتو . كما سمح لهم ببيع المشروبات الكحولية للمسيحيين على أساس البيع للمتاجرة وليس للإستهلاك الفردي . كما يذكر المؤرخ ألبرت ليندلمان¹⁵ إن أصحاب الحانات في روسيا كانوا يفسدون الفلاحين بالشراب وحتى بيعهم له بالدين . ولتفادي المشاكل الناجمة عن ذلك أصدرت السلطة المركزية ، في عام 1805 ، مجموعة قرارات جديدة (54 قراراً) بالنسبة لليهود ، منها ما يحظر عليهم بيع الخمر في بعض المناطق ومنها ما يلغي جميع العقود التي أبرموها لعمليات البيع والمتاجرة . وينصّ أحد هذه القرارات على منع اليهود من امتلاك الحانات وبيع الخمر بالدين في القرى ، وإن جميع مديونيات الأفراد ، الناجمة عن مثل هذا البيع ، تعتبر لاغية تماماً¹⁶ . إلا أن بعض القرارات ، التي سبق ذكرها ، تضمنت لهم حرية العبادة والتعليم والملكية وغيرها .

وإذا استثنينا تعاطي اليهود مع مسيحيي روسيا القيصرية في شؤون البيع والشراء والتجارة والإقراض ، كانت الجماعات اليهودية تعيش منعقدة على نفسها اجتماعياً وثقافياً وروحياً ولغوياً . فألبسة اليهود وقبعاتهم السوداء متميزة وطقوس يوم السبت وطعام الكوشر كان جزءاً لا يتجزأ من حياتهم . اللغة التي يتحدثون بها مع بعضهم البعض كانت " اليديشية " وكثير منهم لم يكن يحسن اللغة الروسية أو حتى يعرفها . كانت تدبر شؤون الجماعات اليهودية الذاتية فئة منتخبة منهم . وعلى الرغم من تواجد اليهود في بعض دول أوروبا الشرقية قرابة 600 عام أو أكثر من ذلك ، لم يحاولوا الاقتراب من الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها أو التأقلم مع البيئة الاجتماعية المسيحية إطلاقاً . ولعل أفضل شاهد على ذلك ماكتبه حايم وايزمان في سيرته الذاتية¹⁷ : " .. كان هناك انقطاع كامل بيننا وبين غير اليهود (الغويم) . وحتى في المدن الصغيرة كنا نعيش منفصلين عن بعضنا البعض . وكان اللاف للخطر أكثر من انفصالنا الفيزيائي هو الانفصال الروحي . كنا غرباء عن بعضنا في طريقة التفكير وفي الأحلام والاحتفالات وحتى في لغة التخاطب .. وكدت أنا لا أعرف كلمة بالروسية حتى بلغت الحادية عشرة من عمري " . وقد زاد تقوقع اليهود على أنفسهم بعد قرار الامبراطورة كاترينا الثانية عزلهم في حدود المستوطنة وداخل قراها ومدنها الصغيرة (الشتيتلات) بعد أن يؤست من دمهم في المجتمع الروسي .

Esau's Tears , Albert Lindemann , 1997

15

Rules for Jews in the Russia Empire Pales by Bruno Martuzans , 2002, Roots-Saknes Web Site

16

Trial and Error , Chaim Weizmann , 1949

17

والسؤال البديهي الذي يطرح نفسه ما مصدر هذا الانغلاق على الذات ؟ وما تفسير هذه الحالة الاجتماعية الشاذة ؟ يجب على هذا السؤال من خلال دراسات أكاديمية و من منظور نشوئي (تطوري) كيفين ماك دونالد ، أستاذ علم النفس ¹⁸ . فمن وجهة نظره إن لليهود سمات خلقية متعددة من بينها سمة " التمحور حول إثنيتهم " . فاليهودية يجب فهمها على أنها استراتيجية جماعية من خصائصها العزل الاجتماعي و الثقافي والبيولوجي (الجيني) عن المجتمعات غير اليهودية لقناعة اليهود بأنها تضمن لهم الاستمرارية والبقاء ، هذا إضافة إلى سمات المنافسة (غير المتكافئة في الغالب) وحبّ التملك المتأصلة والتي أدت إلى حدوث انشقاقات وكرهية لليهود داخل المجتمعات التي عاشوا بين ظهرانيها . وبتعبير آخر، لقد ولدت هذه الاستراتيجية النشوءية ردود أفعال مضادة (دفاعية) لدى الشعوب الأخرى ما هي إلا صورة الأصل في المرأة . وإن كانت نظرية ماك دونالد تنطبق عموماً على مجموعات اليهود أينما حلّوا في أنحاء العالم ، فالشكل الأمثل لها كان يبدو واضحاً في أوروبا الشرقية ، وبخاصة في حدود المستوطنة .

لفهم هذه السمة بشكل أفضل ، لابد من الاطلاع على طبيعة الديانة اليهودية وقوانينها أولاً ومن ثم متابعة الدور الذي لعبته الأرثوذكسية اليهودية والأصولية في أوروبا الشرقية . فالدين اليهودي ، على عكس الديانات السماوية اللاحقة ، خاص باليهود . ولا توجد مؤشرات تاريخية على رغبة رجال الدين في نشر دعوتهم ، بل على العكس من ذلك كان ولا زال جلّ اهتمام هؤلاء بناء سور شائك حول أتباعهم ومنعهم من التزاوج والاندماج والاختلاط بالشعوب والديانات الأخرى تبعاً لأوامر " يهوه " . فالدين اليهودي أنزل حصراً على شعب الله المختار : " لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم . فإياكم قد اختار الرب إلهكم من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص " . فالقداسة والخصوصية التي وهبها يهوه لهذا الشعب لا تسمح بتوسّعها لتشمل الشعوب الأخرى وإلا كانت مخالفة صريحة لأوامره . ليس هذا فحسب ، بل هناك أمر صريح بعدم الاختلاط بالأمم كما في وصايا يشوع الوداعية : " لكي لا تختلطوا بهؤلاء من الأمم الباقية معكم ، ولا تذكروا اسم آلهتها ولا تقسموا بها ولا تعبدوها ولا تسجدوا لها " . وعندما اختلط بعض قدامى اليهود بالأمم الأخرى وتزوجوا من نساءها عندئذ جاءهم التحذير على لسان عزرا الكاهن : " لقد خنتم عهد الرب وتزوجتم من نساء غريبات لتزيدوا من وطأة إثم إسرائيل . فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم واطلبوا مرضاته ، وانفصلوا عن أمم الأرض وعن النساء الغريبات " . وأمثال هذه الأوامر والتوصيات نجدها في العديد من أسفار النبي موسى والأسفار التاريخية اللاحقة . ويرجع المؤرخ اليهودي الروسي سيمون دوبنوف في كتابه - تاريخ اليهود - ¹⁹ أسباب تكتل اليهود وتماسكهم (في الشتات) إلى عوامل دينية في المقام الأول : " في الأزمنة

¹⁸ Understanding Jewish Influence I , Kevin Mac Donald, 2003
¹⁹ History of the Jews in Russia and Poland by Simon Dubnow , (1916-1920)

الغابرة ، كان تلاحم اليهود كأمة واحدة مصدره ثلاثة عوامل ، العرق والدين ومجموعة القوى المادية والروحية الموجهة نحو هدف واحد . وفي مرحلة لاحقة ، في فترة الشتات وفقدان الموطن ، كان الوعي الديني ، بشكل رئيس ، هو الذي وحد اليهود ككتلة واحدة واستعاض عن الروابط السياسية و الغريزة العرقية الزائلة " .

ولا يقتصر الأمر فقط على العهد القديم ، فوفقاً لتفسيرات الحاخامات والمعتقدات اليهودية الأرثوذكسية ، فإن النبي موسى تلقى في جبل سيناء التوراة (المكتوبة والشفهية) معاً ، وبالتالي ، فإن القوانين المكتوبة مرتبطة تلازمياً مع القوانين الشفهية . وهكذا فإن القوانين اليهودية لا تعتمد على القراءة اللفظية للتوراة ولكن على كل من التعاليم المكتوبة والشفهية والمدونة من الحاخامات اللاحقين في التلمود والقوانين والأحكام الدينية . ويذكر الصحافي دوغلاس ريد ²⁰ إن التلمود هو المرجع الأعلى عند غالبية اليهود ... وحتى التوراة فيأتي في المرتبة الثانية وكلام الحكماء أهم من كلام الأنبياء . ولنا أن نتصور وجود ما يقارب الخمسة ملايين يهودي في حدود المستوطنة بروسيا القيصرية وبعض دول أوروبا الشرقية الأخرى يعيش معظمهم في ظل تخدير حاخاماتهم المحدودي الأفق والتلموديين الجهلة ، ويتلقون عنهم التعليم التلمودي مما ساعد على انحدار مستواهم الفكري . ويقول المؤرخ اليهودي برنارد لازار : " لقد كانوا ضحايا الانعزال ومردّه بشكل رئيسي هؤلاء الحاخامات " . كما يضرب مثلاً لما يقوله هؤلاء التلموديون لأتباعهم : " لا تزرعوا أراضي الغرباء فقريباً ستزرعون أرضكم ؛ لا تتعلقوا بأي أرض حتى لا تخونوا ذكرى أرضكم ؛ لا تخضعوا لأي ملك لأنه ليس لكم حاكم سوى إله الأرض المقدسة يَهُوه . لا تنتشبتوا بين الشعوب لكي لا تخسروا خلاصكم و رؤيتكم لنور الانبعاث . ابقوا كما كنتم يوم غادرتم منازلكم فالساعة قادمة وسترون هضاب أسلافكم ؛ هضاباً تكون أنبذ مركزاً لعالم سيكون خاضعاً لسلطانكم " ²¹ .

ويذكر المؤرخون اليهود إن مدينة فيلنا الليتوانية كانت منذ القرن السابع عشر معقلاً لليهود ومركزاً دينياً كبيراً لدراسة التوراة ، وكان يهود أوروبا يطلقون عليها اسم أورشالايم ليتوانيا . ومن هذه المدينة انطلقت البداية الحقيقية لهجرة اليهود من أوروبا الشرقية إلى فلسطين على أسس دينية بحتة بدعوة من الحاخام إليياهو بن شلومو زالمان (ويلقب بالعبرية عبقرى فيلنا المقدس) . كان زالمان يعتقد أن لمّ شمل اليهود من شتاتهم سيقتهم في أرض إسرائيل وسيعترف العالم بحقهم بحياة قومية وروحانية هناك . وتأثراً بتعليماته ورؤيته قامت مجموعة من أتباعه وتلاميذه بالهجرة والاقامة في الأرض المقدسة أولاً في صفد ومن ثم في القدس .. وكان من أهداف هذه المجموعة إعادة بناء القدس

Far and Wide by Douglas Reed , 1951 ²⁰

(and these hills will then be the Centre of the World , which will be subject to your Power...) ²¹

كمركز دولي معترف به للتوراة والاسراع بلمّ شمل اليهود في المهجر والتوسع في المناطق المستعمرة من أرض إسرائيل . وقد غادرت المجموعة الأولى منها ليتوانيا ، التابعة للإمبراطورية الروسية آنذاك ، في عام 1808 . ويعرف هؤلاء في التاريخ اليهودي " البيروشيم " Perushim ، أي الانفصاليين لأنهم كانوا يريدون الانفصال عن " نجاسة " المجتمعات (غير اليهودية) المحيطة بهم في الشتات . ليس من المستغرب إذاً ، في ظل هذه البيئة الأرثوذكسية والأصولية والتمحور الإثني والإنغلاق ، أن نجد أن أوائل نشطاء الحركة الصهيونية جاؤوا من أسر يهودية متزمتة دينياً ودرسوا أثناء طفولتهم في مدارس يهودية على يد الحاخامات ، وعلى رأسهم حاييم وايزمان ، الذي كتب في مذكراته أن من بين الكتب القليلة التي كان يحتفظ بها والده التلمود ، وأشار منتقداً يهود ألمانيا المندمجين نسبياً في مجتمعهم هناك " .. وحتى تدينهم لم يكن أوثوذكسياً بالشكل الذي عرفته وأحببته في مسقط رأسي في بينسك " . وبتعبير آخر ، وكما يؤكد المؤرخ برنارد لازار ، إنه لا يمكن لليهود الخضوع سوى لقوانين التوراة وليس للقوانين التي تسنها الدول الأخرى . وهكذا فأينما عاش اليهود بين الشعوب الأخرى كانوا يصرون ، ليس على ممارسة شعائرهم الدينية فحسب ، بل على استثنائهم من بعض قوانين وعادات الشعوب التي يعيشون معها وعلى الحكم الذاتي وفق قوانينهم الدينية – السياسية . وكانت مثل تلك الميزات والاستثناءات مبعث نقمة إضافية عليهم من الآخرين " 22 .

نيقولا الأول والخدمة العسكرية

فُرضت الخدمة العسكرية ، في الواقع ، منذ إنشاء الإمبراطورية الروسية على يد بطرس الأكبر في عام 1721 . وكان الجنود آنذاك يخدمون في الجيش على مدى الحياة ؛ وفي العقود التالية كانت القوانين المتعلقة بالخدمة تتغير تبعاً للظروف السياسية وتوسع الإمبراطورية والحروب التي يخوضها القيصرية الروس مع جيرانهم . ففي بعض السنوات لم يكن يستدعى أحد للخدمة ، وفي سنوات الحروب كان يرتفع الاستدعاء إلى معدل ثمانية أفراد لكل ألف رجل بالغ أو أكثر . ويتم اختيار المطلوبين للخدمة تبعاً لكل ولاية (محافظة) من ولايات الإمبراطورية . وفي مطلع القرن التاسع عشر ، أصبحت مدة الخدمة 25 عاماً ثم 20 عاماً في عام 1834 ثم خفضت بعد ذلك إلى 15 عاماً (سبع سنوات خدمة فعلية وثمانية سنوات قيد الاحتياط تبعاً للضرورة) . أما أعمار المطلوبين فكانت تتراوح ما بين 17 – 35 سنة ، وقد يرفع سقف السن في فترات الحرب . في هذه الفترة كانت الطبقات الاجتماعية من النبلاء والتجار ورجال الدين والمعلمين وأصحاب المزارع معفاة من أداء الخدمة العسكرية . ويمكن للنبلاء التطوع والالتحاق بالمدارس الحربية والعمل كضباط إذا رغبوا في ذلك . أما

الجنود فكانوا بمجملهم من طبقة الفلاحين الأميين التابعين في الأصل هم وعائلاتهم لملكية النبلاء . ومع مرور الوقت ، خلق نظام التجنيد هذا مشاكل اجتماعية تتعلق بزوجات وأبناء هؤلاء المجندين الذين بقوا في الغالب بلا مصدر رزق أثناء الخدمة الطويلة لمعيهم . و لحلّ هذه المشكلة ، وفي الوقت نفسه لتحديث الجيش برفده بعناصر متعلمة وأفضل تدريباً ، قام النظام القيصري ، في عام 1805 ، بإنشاء ما سمي " بالمدارس الكانتونية " العسكرية لأولاد الجنود المسيحيين والمسلمين الروس ²³ . وتقضي القوانين بإلحاق القاصرين ، بدءاً من سن العاشرة ، بهذه المدارس يتلقون فيها التعليم العسكري إضافة إلى القراءة والكتابة و يفرزون بعدها إلى الوحدات العسكرية حسب تأهيلهم أو إلى وظائف مدنية إذا كانوا غير ملائمين للخدمة العسكرية . وفي هذه الحالة تزال تبعية الزوجة والأولاد من النبلاء لتصبح تبعيتهم للدولة وعلى مسؤوليتها ونفقتها .

وحتى عام 1827 ، لم يكن يهود روسيا القيصرية ملزمين بأداء الخدمة العسكرية بل بدفع البديل النقدي . في ذلك العام ، أصدر القيصر نيقولا الأول قانوناً يلزم اليهود أيضاً بخدمة بلادهم وعلى غرار مواطنيهم المسيحيين والمسلمين ، بما في ذلك إدخال الصبية القاصرين في مدارس الكانتونات العسكرية . لقد جرت في روسيا عدة محاولات سابقة لدمج اليهود قدر المستطاع في المجتمع وجعلهم روساً حقيقيين وإعطائهم الحقوق وتكليفهم بواجبات كغيرهم ولكنها باءت جميعها بالفشل . وقد فرض القانون الجديد نسبة (حصة) على اليهود عند الاستدعاء للخدمة ، يذكر المؤرخون بأنها كانت عشرة عن كل ألف شخص . وأعطى القانون من الخدمة العسكرية طبقة التجار المسجلين في النقابات ومعلمي المدارس والحاخامات . وقد عهدت السلطات الروسية تأمين العدد المطلوب منهم للخدمة إلى مايعرف باسم " الكاهال " ²⁴ (ممثلي اليهود في المناطق والشتيتلات التي يعيشون فيها ، وهم في العادة نخبة اليهود ، من الحاخامات والمدرّسين والأعيان والموسرين المنتخبين لتسيير شؤون جماعتهم كصلة الوصل مع السلطة المركزية) . وكان للكاهال الحق في اختيار من يناسبهم من البالغين للخدمة المباشرة أو الصبية للالتحاق بالمدارس الكانتونية . وقد أدى هذا القرار إلى مزيد من نقمة اليهود على القيصر نيقولا خاصة . جاءت النقمة لأسباب متعددة ، منها قناعتهم الدينية الراسخة أنهم في الشتات " ضيوف نخبة " رغم أن بعضهم ينحدر من سلالات عاشت في روسيا وغيرها لعدة قرون . والسبب الآخر أن البديل النقدي ، الذي كان شبابهم ورجالهم يدفعونه ، يمكن تعويضه بسهولة من أعمال التجارة والوساطة ، الأمر الذي يصعب تحقيقه أثناء الخدمة لهذه المدة الطويلة .

و لا بد هنا من الوقوف عند نقطتين هامتين ترتبطان بهذا الموضوع . النقطة الأولى هي الطرق الملتوية التي لجأ اليهود إليها لالتفاف على قانون الخدمة الإلزامية ، والثانية كيف فسّر المؤرخون

Cantonists ²³
Cahal ²⁴

اليهود أسباب قانون الخدمة العسكرية الذي أصدره نيقولا الأول بحق بني جلدتهم . كان على الكاهال المحليين أن يحققوا وفق القانون حصة اليهود في المنطقة من المكلفين بالخدمة العسكرية سواء من الشباب أو اليافعين . وقد لجأ الكثير من الشبان والرجال اليهود للتهرب من الخدمة إما بالهرب أو دفع الرشاوى أو حتى إصابة أنفسهم بعاهاات . وبالتالي ، كان الكاهال يضطر أكثر فأكثر إلى إلحاق الصبية بالمدارس الكانتونية لتغطية العجز في حصة المتهريين الشباب . ويذكر أحد المؤرخين اليهود 25 إنه في السنوات الثلاثين من عهد القيصر نيقولا الأول أجبر حوالي سبعين ألف يهودي على أداء الخدمة العسكرية ، خمسون ألفاً منهم كانوا من الصبية . ولعل أكثر ما يلفت النظر هو لجوء الكاهال إلى تشكيل عصابات مأجورة من الأفراد تقوم سرّاً باختطاف الصبية اليهود الفقراء أو المنبوذين اللاشرعيين أو ممن لايمتلكون وثائق ولادة رسمية وتقديمهم إلى السلطات 26 . وكان العديد من أعضاء الكاهال يتكسبون مادياً من السلطة القيصرية لقاء تزويدهم بالصبية للخدمة العسكرية أو من الآباء اليهود الأثرياء لإعفاء أولادهم منها . ويذكر الصحفي الأمريكي- اليهودي ستوارت كاهان إنه أثناء الحرب الروسية اليابانية (1904 - 1905) استخدم كثير من اليهود أساليب متعددة للتهرب من العسكرية . فبعضهم تحوّل (ظاهرياً) الى المسيحية بهدف تأخير خدمته إبان الحرب أو على الأقل للخدمة في مهمات غير ميدانية أقل خطراً ، ولجأ آخرون إلى رشوة الضباط للبقاء بمنأى عن الخدمة . ولعل من المفارقة أن يتباهي بعض كبار أقطاب اليهود بالأساليب التي اتبعوها آنذاك للتهرب من الخدمة ولو على حساب القاصرين . يقول حايم وايزمان في مذكراته : " لقد انتهزت فرصة انقطاعي عن الدراسة للتخلص من الواجب العسكري الذي كان يحوم حول رأسي مثل الكابوس . ومن البديهي أنه لم يكن لدي نية لخدمة القيصر نيقولا الأول .. وبضربة حظ ، تمكنت من التهرب من الخدمة العسكرية أثناء مقابلة مع قائد عسكري محلي روسي محترم ومتقف ، والذي وجد أنه من المؤسف أن أقطع دراستي لأداء الخدمة " 27 . أما عائلة ناحوم غولدمان ، رئيس منظمة الصهيونيين العالمية ، فيبدو أنها أبتكرت طريقة أكثر ذكاءً من عائلة وايزمان وأقل تكلفة : " كان في ليتوانيا قانون يعفي الابن الوحيد في العائلة من أداء الخدمة العسكرية ، وفي المجتمعات اليهودية كان الحاخام هو المسؤول عن سجلات الولادة . وهكذا ، عندما يكون لأب ثلاثة أبناء كان يسجلهم تحت أسماء (عائلات) مختلفة . ففي عائلتي (على سبيل المثال) كانت كنية جدي لايمان ، وكنية أبي غولدمان و عمي زالكوفيتش " . كما يذكر ديفيد فولفزون (وهو من كبار الصهاينة) إنه بعد أن تلقى تعليمه الديني في ليتوانيا هرب والده ، في عام 1873 ، للعيش مع أخيه في ألمانيا لتفادي أداء الخدمة

25 One Purim, Two Haman , Larry Domnitch, 2004

26 Jews of Lita (Lithuania) by Israel Kloizner

27 ويبدو واضحاً أن وايزمان قد تحاشى ذكر الطريقة الحقيقية التي (أقتع !) بها الضابط المحترم باعفائه من الخدمة العسكرية فقد كان أثناء نشر مذكراته (تريال أند إرور) ، في عام 1949 ، أول رئيس لدولة إسرائيل .

العسكرية في الجيش القيصري . وقد لجأ آخرون إلى بتر إبهامهم بما يعيقهم من الضغط على زناد البنادق ²⁸ . تتجلى نقمة يهود روسيا على فرض العسكرية على أبنائهم عامة وعلى نيقولا الأول خاصة من خلال تأريخهم لهذه الفترة . فقد كتب عنها العديد من المؤرخين اليهود مطولاً ، ودخلت أيضاً في صلب الأدب اليهودي من روايات وقصص وأشعار . لقد اختزل المؤرخون اليهود مسألة الخدمة العسكرية كواجب وطني مقدس إلى قضية سوق (الأطفال) اليهود إلى مدارس الكانتونات العسكرية . ولم أجد أبلغ من عنوان كتاب صدر مؤخراً " الكانتونيون ، جيش القيصر من أطفال اليهود " للكاتب لاري دومنيتش . وهكذا يوحي هذا العنوان ، المثير للشفقة والتعاطف ، بأن من كان يحمي حدود الإمبراطورية الروسية الشاسعة هم الأطفال اليهود ! ²⁹ . ودومنيتش هذا ليس إلا صدى لعدد من المؤرخين الذين سبقوه في تفسير أهداف نيقولا الأول من القانون الأنف الذكر . يقول سيمون دوبنوف (1860-1941) ، أشهر مؤرخ يهودي معاصر للأحداث في روسيا القيصرية : " كانت المدارس الكانتونية ، أو بالأصح المعامل (الكانتونية) ، تهدف الى انتاج جيل جديد من اليهود اللامتهودين ، جيلاً روسياً بشكل كامل وإن أمكن إدخالهم بالمسيحية " . هذه المقولة أصبحت فيما بعد محور موضوع الخدمة العسكرية وحقبة نيقولا الأول لجميع المؤرخين والكتاب اليهود . أما المؤرخ هيرمان روزنتال ³⁰ فيشرح بشكل أوسع ، في الموسوعة اليهودية ، مقولة دوبنوف : " ومن الطرق القاسية والاستبدادية التي اتبعها القيصر نيقولا الأول من أجل دمج اليهود بالمجتمع الروسي ، هي إدخال نظام مدارس " الكانتونيست " للتدريب العسكري لليهود القاصرين الذين كانوا ينتزعون بالقوة من أحضان أهاليهم .. وغالباً ماكانوا يجبرون على الانضمام إلى الكنيسة الأرثوذكسية ... فقد كان من الأسهل تحويلهم إلى هذه الكنيسة من تحويل من هم أكبر سناً ممن أصبحت معتقداتهم الدينية راسخة . وكانت الطريقة المثلى هي انتزاعهم من مسقط رأسهم بحيث ينسون دينهم والبقاء من دون حماية تحت رحمة دعاية التبشيريين وضباط الجيش " . وفي موضع آخر يضيف : " لقد صُوّر هذا القانون ظاهراً على أنه توزيع عادل للأعباء العسكرية بين جميع المواطنين ، وفي الحقيقة فإن الحكومة كانت ترغب بنزع عدد كبير من اليهود من مجتمعهم ، عن طريق الخدمة العسكرية ، وزرعهم في أماكن أخرى في الأراضي الروسية بغية حرمانهم من سماتهم اليهودية و - إن أمكن أيضاً - إدخالهم في الدين المسيحي " . إذاً ما يؤخذ على الإمبراطور هو رغبته في دمج اليهود في المجتمع الروسي رغماً عن أنفسهم ، (وإن أمكن) إدخالهم في الدين المسيحي ، أما انتزاع القاصرين اليهود بالقوة من أحضان أهاليهم ، بحسب رأي المؤرخ روزنتال ، فكان من قبل القيصر

²⁸ Memory of an Irgun Fighter , by Yehuda Lapidot

²⁹ بقي أن أشير هنا إلى مسألة دقة الأرقام في التاريخ اليهودي . ففي حين يذكر بعض المؤرخين اليهود إلى أن سن المطلوبين للخدمة العسكرية كان ما بين 12 - 25 عاماً تصبح عند آخرين 8 - 35 وأطرفها ما ذكرته دار النشر اليهودية " ديفورا " والتي ترى أن الأطفال اليهود كانوا يؤخذون إلى المدارس الكانتونية في سن السادسة !! .

³⁰ Cantonists , Herman Rosenthal , Jewish Encyclopedia

وليس من مجموعات الكاهال اليهودية ! . إن " إمكانية " تحويل القاصرين اليهود في مدارس الكانتونات إلى المسيحية عند روزنتال تصبح لدى فاليري كادزايا ³¹ " التحويل عن طريق الإكراه والتهديد بالقتل " وتروى على شكل قصة درامية تثير المشاعر وعلى النحو التالي: " .. وبالكاد أمكن لواحد من كل عشرة من هؤلاء الصبية أن يبقى على قيد الحياة لإكمال تأهيله في المدرسة (الكانتونية) ويصبح جندياً ... ولإجبار الصبية على التحول المبكر إلى الكنيسة كانوا يجلدون بلا نهاية ، ويرغمون على أكل السمك المملح ويمنع عنهم الماء وتغمر رؤوسهم بالماء إلى أن يفقدوا وعيهم ويصابوا بالصمم " . وتؤكد الكاتبة إلى أنه بسبب الضرب والتعذيب للصبية اليهود : " كانوا يموتون ، في بعض الأحيان بمعدل 50 فرداً شهرياً في هذه المدارس " ، ثم تتساءل إذا ما كان واقع صبية الكانتونات هذا أشنع من غرف الغاز في أوشفيتز ؟ ³² . أما هارلان تسفي بلاك ، فيذهب أبعد من ذلك ، فهو يرى أن لهذا القيصر ، المعادي للسامية ، مخطط سري كان يقضي بإفناء ثلث اليهود الروس وبتحويل الثلث الثاني إلى المسيحية ، أما الثلث الثالث فبطردهم خارج الإمبراطورية . غولدا مائير ، رئيسة الوزراء السابقة لإسرائيل ، أدلت أيضاً

بدلوها حول هذا الموضوع عندما بيّنت في مذكراتها أن جدّها ألحق بالخدمة العسكرية ، وهو في الثالثة عشر من عمره ، وأمضى في الجيش القيصري ثلاثة عشر عاماً . وقد ظل خلال هذه الفترة نصف جائع لأنه لم يحصل على وجبات الكوشر الخاصة باليهود . كما تذكر أنه كان يتعرض للضغط والتعذيب لإكراهه على اعتناق المسيحية ، إلا أنه لم يتخلى عن يهوديته رغم ذلك . ولعل الشيء الذي يتحاشى المؤرخون اليهود ذكره هو وجود وثائق رسمية ، تعود لعام 1830 تتعلق بمسألة القواعد المتبعة من أجل السماح للمجندين اليهود اعتناق مسيحية الكنيسة الأرثوذكسية حصراً أو أية كنائس أخرى كاللوترانية مثلاً . وقد وافق القيصر نيقولا الأول على السماح لهم اتباع أي كنيسة يرغبون فيها . ففي حالة رغبة المجند باعتناق المسيحية ، يجب أولاً تعليمه المبادئ الأساسية ومن ثم تقديمه امتحاناً بحضور ثلاثة شهود وتوقيع محضر بذلك تؤكد " رغبة " اليهودي باتباع هذه الكنيسة أو تلك ³³ . و بفضل أمثال هؤلاء المؤرخين والكتاب والصحافيين اليهود ، تحولت قضية محورية ارتبطت بسياسة الدفاع لروسيا القيصرية إلى تشويه متعمد لأهداف واضعها وإلى تصنيفها ، كما جرت العادة في التاريخ اليهودي ، في خانة العداء للسامية والكرامية للدين اليهودي . ورغم أن المدارس الكانتونية العسكرية لجميع المكونات الدينية والإثنية للإمبراطورية الروسية قد ألغيت في عام 1857 بقي

³¹ The Cantonists , Valery Kadzhaya

³² وقد يتساءل القارئ هل هذا الكشف التاريخي مقدمة لطلب التعويضات من روسيا الفدرالية وعلى غرار ما جرى في ألمانيا الاتحادية ؟

³³ يؤكد برونو مارتوزانس إن المراجع التي تتحدث عن إكراه اليهود على اعتناق المسيحية من دون رغبتهم مبالغ فيها ، ويشكك في مدى موضوعية المراجع التاريخية اليهودية وبخاصة الموسوعات

الهروب من الخدمة العسكرية أمراً شائعاً لدى اليهود الروس . فقد نشرت الموسوعة اليهودية ³⁴ إحصائية عن عدد المطلوبين والمتخلفين (الهاربين) اليهود من الخدمة . ففي عام 1877 ، على سبيل المثال ، كان عدد المطلوبين للخدمة هو 5183 فرداً وعدد المتخلفين 4351 فرداً . وقد تكون هذه الأرقام هي المؤشر الحقيقي على عدم موضوعية وصدق المؤرخين اليهود بشأن نوايا القيصر نيقولا الأول وأهداف المدارس الكانتونية ، وأيضاً على مدى ولاء من لا ولاء لهم لأحد .

اغتيال الإسكندر الثاني

يجمع المؤرخون على أن القيصر الإسكندر الثاني (1855-1881) هو رائد الإصلاحات والتحرر في روسيا . فقد كانت مسألة عبودية الأرض آنذاك تؤثر على حوالي 23 مليوناً من الفلاحين الفقراء وأسرههم مقابل ما يقرب من ربع مليون مالك للأراضي . وهكذا أصدر القيصر الإسكندر الثاني ، مع بدايات حكمه ، في عام 1861 قراراً بإعتاق الفلاحين . وكان هذا القرار التاريخي مدخلاً رئيساً لרزمة من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تلت في روسيا . ولعل ما أثّج صدور الجماعات اليهودية أكثر مما حصلوا عليه من مزيد الحريات ، التي باتوا يتمتعون بها في عهد هذا القيصر ، هو إلغاء المدارس الكانتونية العسكرية على جميع القاصرين بمن فيهم اليهود . ومع ذلك ، تعرض الإسكندر الثاني إلى أكثر من محاولة اغتيال ، كان آخرها في مطلع آذار/مارس 1881 وهي المحاولة التي أودت بحياته . اغتيل القيصر الإصلاحي على يد جماعة فوضوية متطرفة تطلق على نفسها اسم " إرادة الشعب " ³⁵ كان لليهود ضلع في هذه الجريمة السياسية ³⁶ .

لقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر إنطلاقة كبيرة للحركات المتطرفة في أوروبا وأمريكا ترافقت مع فلسفة الفوضوية ، ولاقت هذه الحركات آنذاك شعبية واسعة في روسيا القيصرية . ويرى المؤرخون بأن اليهود قد شاركوا بقوة في هذه الحركات . ويعزوا بعضهم ذلك إلى أن الاضطهاد الذي تعرضوا له عبر القرون قد دفعهم إلى عدم احترام السلطات والنظم الاجتماعية القائمة وبالتالي فإن التطرف والفوضوية كان مغرياً للعديد منهم . ومع ذلك علينا أن نتذكر أن الدين اليهودي عامة والتلمودية المتشددة خاصة لا يشجعان على احترام القوانين الدنيوية لليهود في الشتات . ففي كتابه - عداء السامية - المنشور في عام 1894 ، خصص المؤرخ اليهودي برنارد لازار فصلاً كاملاً حول مفهوم الروح الثورية

³⁴ Jewish Encyclopedia ,Army, Russia by Herman Rosenthal et al.

³⁵ The Peoples' Will

³⁶ The Babylonian Talmud, Vol.1, P.109

في اليهودية ومدى ارتباطها بأسفار التوراة ، وان الإثارة والروح الثورية في اليهودية ليس مردّها سبب خارجي ، كالحاكم الطاعي أو الناس أو القوانين المتشددة ، بل داخلي وتعود إلى الروح العبرانية : " إن أي حكومة في نظر اليهودي تمثل الشيطان بعينه لأنها تأخذ مكان حكومة الإله - يهوه - ويجب محاربتها . فيوه هو الرئيس الوحيد للمجموعات اليهودية الذي تستوجب طاعته " . لقد ترتب على اغتيال الإسكندر الثاني عدة نتائج هامة وحاسمة ، أهمها :

* بدء أعمال الفوضى والشغب في روسيا ، وبشكل خاص بين الفلاحين واليهود وأمتدت لسنوات عدة ، و يحبذ اليهود تسميتها على طريقته الخاصة " البوغروم"³⁷

* التحرك المحموم للفعاليات المصرفية والسياسية والإعلامية اليهودية في الشتات ، وبخاصة في بريطانيا وأمريكا ، لمساندة إخوتهم يهود روسيا والتشكل الفعلي لما عرف لاحقاً باللوبي اليهودي المنظم .

* بداية الهجرة الجماعية لليهود من روسيا بشكل كبير إلى خارج حدود المستوطنة

* تزايد النشاط السياسي بين اليهود بما في ذلك المشاركة الفعالة في الحركة البلشفية و تكوين الحركات الصهيونية السياسية في حدود المستوطنة

أعمال الفوضى والشغب (البوغروم)

من المسلّم به أن جموع الفلاحين ، التي تحرّرت من وطاة العبودية على يد الإسكندر الثاني ، كانت في حالة من الغليان لمشاركة اليهود في اغتيال هذا المصلح الكبير . بدأ الشغب في مدينة إيزابيتغراد مع عيد الفصح الشرقي ، في منتصف شهر نيسان \ أبريل 1881 ، بسبب طرد أحد السكارى الروس من حانة يملكها يهودي ثم انتقلت أحداث العنف إلى العديد من المدن والضواحي والقرى مثل كييف وسميلا وأوديسا وبيريسلاف وصولاً إلى العاصمة البولندية وارسو في كانون أول \ ديسمبر . وقد قام الفلاحون الغاضبون وغيرهم من الشرائح الفقيرة أثناء أعمال العنف المتفرقة بتحطيم العديد من المحلات التجارية والبيوت والحانات التي يملكها اليهود وسلب محتوياتها ، كما قتل عدد منهم أثناء هذه الصدامات في مدن متفرقة . ولابد هنا من الوقوف بشيء من التفصيل على هذه الأحداث التي عصفت بروسيا القيصرية في هذه الفترة لأنها ، من دون أدنى شك ، تشكل مفصلاً رئيسياً في مسار التاريخ اليهودي المعاصر .

التحليل السياسي والاجتماعي لأحداث الفوضى من وجهة نظر يهودية خالصة قادها المؤرخ الروسي سيمون دوبنوف وسجلها في كتابه " تاريخ اليهود في روسيا وبولندا " ، والذي ترجم لاحقاً الى الإنجليزية وصدر في نيويورك في عام 1918³⁸ . هذا الكتاب أصبح فيما بعد المرجع الأساسي للكتب التاريخية والموسوعات والدراسات اليهودية حول تلك الحقبة . يبرر دوبنوف اغتيال القيصر الإسكندر الثاني بأنه ، رغم تحريره للفلاحين الروس ، قد دفع حياته ثمناً لرفضه تحرير الشعب الروسي من العبودية السياسية والطغيان البوليسي . وقد أجبر هذا الطغيان أبطال الإصلاحات الاجتماعية والدستورية الروس إلى الاختباء تحت الأرض بحيث وجد هؤلاء الثوريون أنفسهم مجبرين على اتباع الأساليب الإرهابية ، وكان من بين هؤلاء الثوريين عدداً من الانتليجنسيا اليهودية الشابة . كما يحمل دوبنوف المسؤولية للإسكندر الثالث الذي تولى الحكم بعد اغتيال أبيه . فهذا القيصر وحكومته والجيش والشرطة والصحافة المؤثرة وحتى القضاء قد أعطت اليهود دوراً رئيساً في الاغتيال وحرضت الغوغاء عليهم . وبتعبير آخر ، فإن السلطة القيصرية كانت متأمرة على اليهود ومشاركة في أحداث الشعب ضدهم ، والتي يسوقها دوبنوف عبر الأمثلة التالية : " ما هو مؤكد أن أحداث العنف قد تم الإعداد والتخطيط لها بدقة وأن السلطات لم تتدخل لقمعها . وأن المخططين هم من أرسلوا شخصاً مخموراً إلى الحانة التي يملكها يهودي لافتعال مشكلة تكون إشارة البدء لأعمال الفوضى " . وعن مشاركة رجال الأمن يقول : " كان المتوحشون السكارى يقومون بأعمالهم الشائنة ضد اليهود أمام أعين رجال الشرطة والجيش .. الذين غالباً ما كانوا يرافقون جموع الغوغاء من مكان لآخر كحرس الشرف " .

وحتى القضاء الروسي كان له نصيب في التحريض ، كما يرى دوبنوف : " .. وفي معظم الحالات كان القضاة يتعاملون مع حوادث العنف على أنها تعكير لصفو السلام العام ويفرضون بحق المعتدين أحكاماً مخففة .. " . والطريف في الأمر أن دوبنوف يناقض نفسه في اتهامه للسلطات القيصرية ككل في مواقع متقاربة من كتابه . فهو يلقي باللوم على منظمة سرية وجهة غير معروفة حرضت على العنف : " .. وبينما كانت الطبقات الدنيا من الشعب الروسي مستعدة للتحريض ، كانت هناك - أياد خفية - تدفعهم لارتكاب جرائم كبرى ضد اليهود . ورغم مرور سنوات على هذه الأحداث لم يكن بالإمكان معرفة الجهة التي حرضت على العنف ضد اليهود .. ولقد تم التحضير للبوغروم بعناية من قبل - منظمة سرية - أشاعت أن القيصر الجديد قد أعطى أوامره بإفناء اليهود ، بسبب اغتيالهم لوالده " ³⁹ . كما أن مصادر صحفية خارجية بيّنت مواقف السلطات الروسية من الأحداث والتي تتناقض كلياً مع ما ذهب إليه هذا المؤرخ . إذ أشارت البرقيات التي أرسلها مراسلو وكالة رويتر وصحيفة التايمز اللندنية أثناء

³⁸ History of the Jews in Russia and Poland , Simon Dubnow

³⁹ انظر كتاب دوبنوف (المرجع 38 ص . 285 وما يليها)

بداية الأحداث في إيزابيتغراد إلى ذلك بوضوح : " .. إن عدد الموقوفين في إيزابيتغراد قد بلغ 400 شخص .. " و " لقد طُلبت مساعدة الجيش لوقف العنف وتم قتل عدد كبير من المشاغبين ... ولم يتمكن الجيش من السيطرة على الأوضاع إلا بصعوبة في اليوم التالي بسبب الأعداد الكبيرة للفلاحين الذين توافدوا إلى المدينة من القرى لمجاورة للمشاركة في أعمال النهب . انفجر العنف بسبب خلاف بين بعض المسيحيين واليهود وتحول إلى معركة خطيرة بسبب الطلقات النارية التي انطلقت من بعض البيوت اليهودية في المدينة .. " .

إضافة إلى التحليل السياسي لأسباب الأحداث حاول دوبنوف أيضاً التأكيد على الدوافع الدينية المسيحية والعداء للسامية و للديانة اليهودية كأحد الأسباب . فهو يرى أن القيصر الجديد كان رجعيّاً ومتعصباً للكنيسة الأرثوذكسية ومعادياً لليهود . وشواهد على ذلك أنه خلال الشغب في مدينة سميلا " تم قتل طفل يهودي في السابعة من عمره بطريقة وحشية لرفضه رسم إشارة الصليب " . و في أحداث الشغب في بالتا ، يقول : " قام رجال الجيش والشرطة باعتقال 24 مشاغباً وعدداً أكبر من اليهود . وفي اليوم التالي أطلق سراح - المسيحيين - وسمح لهم بالمشاركة في صفوف الغوغاء اللصوص ، بينما أبقى - اليهود - في السجن " . ويبدو واضحاً أن تزوير وتشويه تلك الحقبة من تاريخ روسيا القيصرية لم يكن مستغرباً إذا عرفنا السيرة الذاتية لهذا المؤرخ الذي كان محرراً للموسوعة اليهودية الروسية ومؤلفاً لعشرة مجلدات حول التاريخ اليهودي ورئيساً لقسم التاريخ اليهودي في جامعة بيتروغراد . تذكر سيرته الذاتية أنه قام " بتزوير " وثائق رسمية ليتمكن من الإقامة في مدينة سانت بطرسبورغ ، التي كان محظوراً عليه كيهودي دخولها ، وكان إلى جانب ذلك من أشد المعارضين لسياسة دمج اليهود في المجتمع الروسي⁴⁰

بداية تشكّل اللوبي وآلة الضغط اليهودية

يمكن الادعاء بأن أحداث العنف التي جرت في جنوب وغرب روسيا القيصرية في بدايات عام 1881 ، شكلت صفحة جديدة في مفهوم العلاقات الدولية كان أبطالها مجموعة من المصرفيين والمتنفذين والإعلاميين اليهود في العالمين الأوروبي والأمريكي . وإذا كان الهدف الأول لهؤلاء إنقاذ إخوتهم في الدين من الاضطهاد في روسيا القيصرية فإن الهدف الأهم والأخطر هو الانتقام من الشعب الروسي وقيصرته وخلق شرخ في العلاقات الدولية بين " الغرب المتمدن والبربرية الروسية ! " .

40 انظر موسوعة ويكيبيديا " سيمون دوبنوف "

بدأ التحرك اليهودي أولاً في بريطانيا ، في أيار/ مايو 1881 ، عندما قدّم عضوان يهوديان في مجلس العموم (البارون هنري دي وورمز و هنري درموند دي فولف) استجواباً لمساعد وزير الخارجية تشارلز ديلك ووزير الخارجية اللورد غرانفيل حول مسألة طرد تاجر يهودي- بريطاني من سانت بطرسبورغ (بسبب مخالفة لقوانين الزيارة للتجار) . وواضح من الاستجواب أن الهدف هو إحراج الحكومة البريطانية على خلفية طرد أحد الرعايا البريطانيين من روسيا ومن ثم بدء حملة أوسع تستهدف العلاقات البريطانية الروسية بسبب اضطهاد الروس لليهود .

بعد أشهر من هذا التحرك ، بدأت الآلة الإعلامية عملها بوتيرة متصاعدة . ففي 11 كانون الثاني / يناير 1882 ، نشرت صحيفة " التايمز " اللندنية مجموعة مقالات بعنوان " اضطهاد اليهود في روسيا " للمؤرخ اليهودي جوزيف جاكوبس⁴¹ تصف الجرائم المروعة بحق اليهود في روسيا وسياسات حكومتها المعادية للسامية . وبعد أسبوع من ذلك ، نشرت صحيفة ثانية " الديلي نيوز " روايات أخرى مشابهة بقلم يهودي آخر يدعى مائير بانكانوفيتش . وقد ركزت هذه المقالات بشكل رئيس على أعمال القتل والإبادة وعلى عشرات حالات الاغتصاب التي تتعرض لها النساء اليهوديات على أيدي الغوغاء الروس . كما أكد مراسل صحيفة التايمز في فيينا على حقيقة الأخبار الواردة من إليزابيتغراد وكيف وأوديسا وغيرها من المدن بأن أكثر من 250 امرأة يهودية قد اغتصبن من المهاجمين أثناء أحداث العنف . وذكر إنه في أوديسا قد تم إحراق يهودي حياً كما تم قتل العديد من الأطفال بلا شفقة . ومما لاشك فيه فإن مثل هذه الأخبار الصحفية قد أثارت الرأي العام المسيحي في بريطانيا والعالم الغربي . وقد سعى المتنفذون اليهود إلى استغلال الأحداث عن طريق تأكيد صحة هذه الأخبار وتقديم وثائق إلى وزارة الخارجية البريطانية من مصادر يهودية في روسيا . ففي منتصف شباط / فبراير سُلمت وزارة الخارجية رسالة مطولة من أحد الحاخامات الروس يقول فيها : " ... وأكد بشرفي بأن تقرير صحيفة التايمز ، والذي تابعته بدقة ، يعبر عن الحقيقة الكاملة والمطلقة لما وقع من أحداث .. وأرجو أن ألقت نظر الأمة البريطانية العظيمة إلى نقطة واحدة ، فهناك مخطط روسي يدعو إلى حث اليهود على إنكار روايات التايمز ... إن اليهود يضطهدون ويغتصبون ويقتلون ... ويجبرون ، إضافة لذلك ، على إنكار هذه البربرية أمام العالم .. " .

إثر ذلك ، قررت الفعاليات المصرفية والسياسية اليهودية في بريطانيا ممارسة ضغط من نوع جديد لمناصرة إخوتهم في روسيا ، عن طريق عقد اجتماع شعبي برعاية عمدة لندن (الفخري) في 1 شباط / فبراير 42 حضره عدد من أساقفة الكنيسة البريطانية واللوردات وأعضاء مجلس العموم وبالطبع أقطاب المصرفيين اليهود ناثانييل وألفريد وفرديناند روتشيلد وغيرهم . وكان واضحاً من الخطب

⁴¹ يعرف على الصعيد الأدبي العالمي أيضاً بأنه من كبار مؤلفي الحكايات الخرافية للأطفال Fairy Tales

⁴² The Mansion House Meeting

المؤثرة التي ألقاها البعض في الاجتماع مدى تأثير الروايات التي نقلتها صحيفة التايمز على الجو العام البريطاني بشكل عام .

أمام هذه الضغوط اليهودية المتزايدة طلب وزير الخارجية البريطاني اللورد غرانفيل من القنصل العام في روسيا تفصي حقيقة الأوضاع هناك وإعداد تقرير بذلك ، وبخاصة حول صحة ما نشرته صحيفة التايمز من أعمال القتل والاعتصاف .

التقارير والمراسلات السرية 43 التي وصلت إلى وزير الخارجية غرانفيل من القنصل العام البريطاني ستانلي تتضمن وصفاً دقيقاً لجولة قام بها مساعد القنصل واغستاف إلى عدد من المدن الروسية التي شهدت أهم حوادث العنف واجتماعاته مع شهود العيان من اليهود ، إضافة إلى تقارير من القناصل المعاونين البريطانيين في مدن أخرى . ونظراً لأهمية هذه المراسلات في كشف حقيقة ما جرى في هذه الفترة لابد للمتابع من الاطلاع على جزء يسير جداً مما ورد فيها .

- من القنصل العام ستانلي إلى وزير الخارجية اللورد غرانفيل (14 شباط \ فبراير 1882)
" .. لقد قام معاون القنصل واغستاف ... بإجراء تحقيق دقيق عن طريق زيارته لخمس أماكن وردت في تقرير صحيفة "التايمز" بتاريخ 11 كانون الثاني \ يناير 1882 وتوصل إلى نتيجة متأنية إلى أن رواية التايمز حول ما حصل في كل مكان من الأماكن المذكورة تحتوي على مبالغاة كبيرة ، و بعضها كاذبة تماماً . أما في رواية صحيفة " الديلي نيوز " بتاريخ 19 من الشهر ذاته عن أحداث سميلا ، وباستثناء أنه كان هناك ستة قتلى ، فإن رواية الصحيفة ليست فقط كاذبة بل يبدو أن الكاتب قد ذهب بعيداً في اختلاق الأكاذيب . وحتى أن كاتب هذه الرواية ، والذي قدم اسمه على أنه مائير بانكانوفيتش ، لم يكن إطلاقاً في سميلا كما صرح بذلك وجهاء المدينة من اليهود ... "

- من معاون القنصل واغستاف إلى القنصل العام ستانلي (ملحق للرسالة أعلاه)
" ... قابلت في إليزابيتغراد خمسة شهود من وجهاء اليهود هناك ، وقد بينوا لي أن أصل الشغب لم يكن ذا طابع ديني ، بل نتيجة رفض شخص روسي دفع ثمن مشروبه في حانة يملكها يهودي ... إن الرواية حول أبراهام ميلر وعائلته في مدينة سميلا مختلفة .. إذ لم تكن هناك حالات اغتصاب في المدينة والرواية عن اغتصاب 50 إلى 60 امرأة وفتاة كذبة فضائحية ... إن الانطباع الذي تولّد لديّ هو أن مائير بانكانوفيتش (كاتب المقال في الديلي نيوز) يهودي لم تكن لديه أية فكرة عن الأحداث في روسيا وقد تم فرض هذا الرجل على محرر الصحيفة بهدف الحصول على الأموال من الجماهير المتعاطفة مع اليهود في بريطانيا ... "

- من معاون القنصل هارفورد إلى القنصل العام ستانلي (5 آذار \ مارس 1882)
" ... إن روح العداء التي تثير الروس ضد اليهود لا تعود ، كما أرى ، إلى فارق في العقائد الدينية بينهما ... وشعور الفلاح الروسي تجاه الأديان الأخرى يتسم تماماً باللامبالاة . والنتيجة هي أن الكراهية موجهة ضد المرابين ... ودواء ذلك يبقى لدى اليهود الذين إذا لم يكفوا عن سياسة المضاربة بأحوال الجهلة والسكيرين من الفلاحين ، فعليهم الاستعداد للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم وهي من النتائج الطبيعية لمثل هذه السياسات ... "

43 من المعروف أنه يتم الكشف عن الوثائق البريطانية السرية بعد فترة من الزمن تصل إلى 50 عاماً أو أكثر .

- من معاون القنصل واغستاف إلى القنصل العام ستانلي (7 آذار \ مارس 1882)
" ... ولقد تولدت لدي القناعة بأن لجنة الإغاثة المركزية (اليهودية) قد بالغت ورگزت على هذه الاعتداءات بهدف استنهاض تعاطف متبرعي صندوق الإغاثة ويبدو أن العقل اليهودي قد تشبع بفكرة أن أولادهم قد ذبحوا وبناتهم قد اغتصبوا بالجملة ويحملون الروس مجمل التجاوزات التي نادراً ما وقعت ... " .

- من معاون القنصل البريطاني هورنستيت إلى القنصل ميتشيل (4 نيسان \ أبريل 1882)
" ... ليس هناك ما يدعو الاعتقاد بصحة ما ذكره البارون هنري دي وورمز في مجلس العموم من أن يهود موسكو قد انتزعوا من فراشهم في منتصف الليل واقتيدوا مباشرة إلى محطة القطارات وأمروا بمغادرة موسكو فوراً .. فليس هناك قطارات تغادر موسكو بين منتصف الليل والسابعة صباحاً ! " .

- من الكولونيل فرنسيس مود إلى اللورد غرانفيل (11 مايس \ مايو 1882)
" .. لقد قام بعض اليهود بالمثل أمام القضاء وهم مضمدي الرؤوس مدعين أنهم قد أصيبوا بجروح بالغة . وعندما طلب منهم رفع الضمادات عن رؤوسهم لم يكن هناك أثر لأي جروح فيها . يهودي آخر قدم كمية من الشعر مدعياً أن المهاجمين قد انتزعوها من ذقنه ، ولكن التحقيق أثبت أن لون الشعرات المقدمة (كدليل) تختلف عن لون شعر ذقنه . " .

تكشف هذه العينة البسيطة من ملاحظات الدبلوماسيين البريطانيين بوضوح عن مدى التزوير السياسي والإعلامي والتاريخي والديني الذي مورس آنذاك بحق الشعب الروسي وحكوماته . وواضح أن أحداث العنف ونهب قد وقعت في روسيا بحق اليهود ، إلا أن مسبباتها لم تكن دينية ولا عرقية ولا سياسية ، كما حللها دوبنوف وغيره من المؤرخين ورجال الدين اليهود . لننظر ، مثلاً ، إلى أهم المطالب التي تقدم بها الفلاحون في بيرياسلاف (في مقاطعة بولتافا) أمام لجنة تحقيق في الأحداث ، مكونة من مسؤولين حكوميين وأربعة من الفلاحين وثلاثة من اليهود (وفق كتاب دوبنوف أربعة من "المسيحيين وثلاثة من اليهود !) :

- على (رجال) اليهود إجبار زوجاتهم وبناتهم عدم ارتداء الحرير والمخمل والذهب إلخ ، لأن مثل هذه الملابس الفاخرة لا تتناسب مع ثقافتهم ولا مع مكانتهم الاجتماعية .

- إغلاق جميع الحانات العائدة لليهود

- إجبار تجار الجملة للمشروبات الكحولية عدم مزج الفودكا بمواد غريبة والتي تكون ضارة أحياناً

- منع اليهود من شراء المواد الأساسية لمقومات الحياة ومن ثم بيعها للمواطنين الروس

- منع اليهود من شراء القمح بهدف التجارة في مدى يقارب 30 كيلومتراً من مدينة بيرياسلاف وإزالة جميع مخازن الحبوب والدقيق القائمة فيها .

- منع اليهود من التجارة أيام أعياد الميلاد والفصح والعمل أيام العطل الرسمية

وواضح أن هذه المتطلبات لاتمت بصلة ، من قريب أو بعيد ، إلى عداة ديني بل تشير إلى شعور الفلاحين بالغبن والاستغلال اليهودي وعدم احترام المجتمع الذي يفترض أن يكونوا جزءاً منه . وقد

فسّر واغستاف هيمنة فكرة النهب والتخريب التي جرت ، وبخاصة للحنات اليهودية ، رغبة الطبقة العاملة بمعاينة اليهود بنفس الطريقة التي عوقبوا هم بها من قبل اليهود عن طريق السرقة المنظمة . وأمام مثل هذه الاثباتات الدامغة التي بدأت تتكشف شيئاً فشيئاً ، كان لابد من إعادة النظر في الأسباب الحقيقية لأحداث الشغب والعنف ، التي عصفت في روسيا ، والتي روج لها دوبنوف وعدد من المؤرخين اليهود . فالمفكر إسرائيل شاهاك في تحليلاته المعاصرة لثورة الفلاحين وأحداث العنف آنذاك ، يؤكد على العلاقة التي كانت تربط اليهود بأمراء الإقطاع الروس وهيمنتهم على الفلاحين وينفي تهمة العداء للسامية كسبب للأحداث ، كما يطالب بإعادة كتابة جزء معتبر من التاريخ اليهودي . أما المؤرخ المعاصر مايكل ستانيسلافسكي⁴⁴ فكتب منتقداً : " كان دوبنوف يرى أن اليهود كانوا قمة الضحايا لحكم القياصرة المطلق وللحكومات المعادية للسامية وأن القوانين التي صدرت بحق اليهود كان مردها التحامل والكراهية مما أدى ذلك إلى نشوء " المذابح " المنظمة ضد اليهود وبإيعاز من الحكومات نفسها . وقد دخلت مثل هذه التحليلات التاريخية في ضمير اليهود (وحرصتهم على الهجرة والتمرد) . في حين أن الدراسات التاريخية اللاحقة تبين أن الأمر كان سببه البيروقراطية وعدم فعالية الحكومات القيصريّة وليس العداء للسامية . أما التسهيلات المقدمة لليهود بالذات فقد كانت أفضل من تلك المقدمة للجماعات الأخرى (غير اليهودية) في الإمبراطورية الروسية . وأن المذابح التي حدثت هنا وهناك كانت عفوية وغير منظمة وليست بتحريض من الحكومات ، كما يدعي دوبنوف ، وإنما لأسباب اجتماعية واقتصادية وخارج سيطرة الحكومة وقوى الأمن " .

لا بدّ أن تقارير القناصل البريطانيين كان لها تأثير فعال على الحكومة البريطانية رغم الضغوطات الإعلامية والشعبية التي مارسها اليهود لدق إسفين في العلاقات الدولية بين بريطانيا وروسيا . ففي طلبات الاستجواب والمناقشة التي قدمها النواب اليهود ، دي وورمز وسيمون ، للحكومة في مجلس العموم ، أفاد رئيس الوزراء بأن التقارير الواردة من القناصل البريطانيين وإن كانت تثير مشاعر الألم والرعب ولكن الموضوع بحد ذاته شأن روسي داخلي لا يمكن لبريطانيا التدخل فيه . ويبدو أن هذه القناعة ذاتها قد تولدت لدى الجانب الحكومي الروسي . ففي 4 شباط إقرار نشر صحيفة سانت بطرسبورغ تعليقاً ذكرت فيه أن الاجتماع الشعبي في لندن ينظر إليه في روسيا على أنه سياسي لا خيري وهدفه إلحاق الضرر بالعلاقات الروسية – البريطانية وإذكاء روح الغضب ضد روسيا .

آلة الضغط والتحريض اليهودية والتي بدأت تدور بشكل متسارع لم تتحرك في بريطانيا وحدها بل انتقلت عبر الأطلسي إلى أمريكا . ففي نفس اليوم الذي عقد فيه الاجتماع الشعبي في منشون هاوس في

لندن ، كان هناك اجتماع شعبي آخر في تشيكرينينغ هول في نيويورك ، برعاية عمدتها أيضاً وحضور عدد من الشخصيات السياسية و الدينية المسيحية . وكما هو الحال في لندن ، كانت مهمة الجالية اليهودية الجلوس في المقاعد والتصفيق الحار لكل متحدث يغالي في التعاطف مع قضيتهم وفي شتم وإهانة روسيا وحكومتها . وهنا ، كان مصدر المعلومات الرئيسي للمتحدثين روايات صحيفة التايمز اللندنية باعتبارها أكثر المصادر " صدقية " . وهنا أيضاً ، تبارى الخطباء في اتهام الشعب الروسي بالاضطهاد الديني وبقتل ونهب اليهود وحرق الأطفال أحياء حتى الموت واغتصاب النساء من دون أن تحرك الحكومة القيصريّة ساكناً أمام هذه البربرية المتوحشة . الإضافة البارزة هنا على اجتماع لندن ، تلك الدعوات الحارة التي وجهها بعض الخطباء لليهود الروس للهجرة إلى الولايات المتحدة . بل وتمنيات أحدهم لو أمكن شقّ المحيط بطول ثلاثة آلاف ميل لعبور يهود روسيا إلى برّ الأمان الأمريكي (إي ليهربوا من فرعون روسيا كما هربوا من فرعون مصر !) . وهكذا نجح اليهود في ضمان تعاطف العالم الغربي مع قضيتهم إلا أنهم أضاعوا ، في المقابل ، أي أمل في التصالح مع الشعب الروسي ونظامه السياسي .

وكما ستنتم الإشارة إليه لاحقاً ، فإن هذه التحركات المحمومة التي قام بها المتنفذون اليهود كانت جزءاً من استراتيجية عامة ومستقبلية تهدف إلى تدويل القضية اليهودية عن طريق تغيير المفاهيم السياسية في العلاقات الدولية و دفع الدول للتصادم مع بعضها البعض ، إذا كانت التطلعات والمصالح اليهودية السياسية والاقتصادية تقتضي ذلك . وفي هذا السياق يمكن فهم التعليمات التي صدرت ، في عام 1891 إلى السفير الأمريكي بأن ينبّه السلطات الروسية أن سوء معاملة اليهود هناك ليس من الشؤون الداخلية لروسيا نظراً لتضرر مصالح الولايات المتحدة من الهجرة المتزايدة لليهود إليها ⁴⁵ . فالتبعات السلبية لسوء المعاملة هذه ، كما أوحى بذلك المتنفذون اليهود للحكومة الأمريكية ، تمثلت في هجرة 200000 يهودي روسي إليها ، خلال السنوات العشر التي تلت أحداث العنف هناك (بمعدل وسطي 20000 كل عام) . وإذا عرفنا أن الهجرة إلى الولايات المتحدة ، في تلك الفترة وما بعدها ، كانت شبه مفتوحة لمعظم الجنسيات والأعراق في العالم (تبين الإحصائيات الرسمية أن الوسطي لهجرة الإيطاليين إلى أمريكا في السنوات التالية كانت 200000 في العام الواحد) وأن الدعوات لهجرة اليهود الروس جاءت من الولايات المتحدة نفسها ، يتبين لنا أن التحريض على التصادم بين هاتين الدولتين كان أحد الأسباب الهامة التي سعى اليهود إليها انتقاماً من الشعب الروسي وقيصرته .

45 كتاب دوبنوف (المرجع 38 ، ص. 461)

في أيار ١ مايو 1882 ، أي بعد فترة وجيزة من نشر الروايات الصحفية الملفقة وعقد الاجتماعات الشعبية في الغرب ، أصدرت السلطات الروسية ما عرف بقوانين مايو المؤقتة ، والتي تنص على مزيد من التشدد إزاء اليهود . فقد منعتهم القوانين الجديدة من الإقامة خارج المدن والأقضية أو استئجار أو إدارة الأراضي والعقارات في القرى كما حظرت عليهم بيع الكحوليات والعمل والتجارة في أيام الأحاد والعطل المسيحية الرسمية في حدود المستوطنة . ولقد بينت السلطات الروسية أن الأسباب الموجبة لهذه القوانين المؤقتة هي العلاقة غير الطبيعية القائمة بين السكان الروس واليهود في حدود المستوطنة ، وأنها تهدف لتعزيز مساعي الحكومة في تحسين العلاقة بين الطرفين وحماية اليهود من الأعمال العدائية ضدهم من قبل السكان وبخاصة الفلاحين في القرى . كما تهدف إلى تخفيف التبعية الاقتصادية للسكان الروس من اليهود ⁴⁶ . وإذا كانت هذه الأسباب ذات طابع داخلي تتعلق بالأمن والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي ، فمما لا شك فيه أن القيصر والسلطات الروسية قد ساءهم إلى أبعد الحدود حملات التشهير والكذب والتجني الديني التي شنها اليهود ، بشقيهم الشرقي والغربي ، ضد روسيا في الخارج وسعيهم إلى تخريب العلاقات بينها وبين دول الغرب على كافة الأصعدة .

النشاط السياسي لليهود الروس في أعقاب أحداث العنف

في 1 كانون الثاني ١ يناير 1882 ، وبعيد أحداث الشغب الكبرى ، صدر في برلين باللغة الألمانية كتيب مغفل الاسم يحمل العنوان : " التحرر الذاتي : نداء من يهودي روسي إلى شعبه " ⁴⁷ . ونظراً للأهمية التاريخية والسياسية البالغة لهذا الكتيب سأقتطف بعض فقراته لتلقى مزيداً من الضوء والفهم الأفضل لتطور الأحداث اللاحقة .

يقول الكاتب :

1- " اليوم وكما بالأمس ، تثير المشكلة الأبدية التي تندرج تحت عنوان – المسألة اليهودية – الكثير من النقاش ، ذلك لأن هذه المشكلة ليست واحدة من الشؤون النظرية ؛ بل هي تتجدد وتحيا كل يوم وتضغط بإلحاح بحثاً عن الحل . ولبّ المشكلة كما أراها إن اليهود يشكلون عنصراً فريداً بين الشعوب التي يعيشون بينها بحيث لا يمكن دمجهم أو تقبلهم وهضمهم من أي من الأمم . وبالتالي ، يكمن الحل في إيجاد طريقة لتصحيح هذا العنصر الفريد بين عائلة الأمم بحيث يمكن إزالة المسألة اليهودية بشكل دائم "

⁴⁶ وهنا أيضاً يشير معاون القنصل البريطاني في رسالة سرية إلى القنصل العام : " أن منع الحكومة بيع " الفودكا " من قبل اليهود هو إجراء حكيم ، فالسكر هو النقيسة المتفشية وسبب لخراب الفلاحين وأحداث الفوضى .. إن أي إجراء يهدف لفصل اليهود عن الفلاحين الروس هو أمر مرغوب فيه "

⁴⁷ Auto Emancipation , 1882 .

2- " .. إن أحداث الأعوام القليلة الماضية وبخاصة في روسيا (القيصرية) ، قد أدت إلى ما عجزت عنه أكثر أنواع الاضطهاد دموية في العصور الوسطى . فالوعي القومي الذي كان إلى حينه نائماً في وسط المعاناة ، قد أيقظ عامة يهود روسيا و رومانيا وأخذ شكل تطّلع لايقاوم نحو فلسطين "

3- " .. علينا ألا نحلم باستعادة يهودا القديمة . كما يجب علينا أن لا نتعلق بمكان تقطعت ودُمّرت حياتنا السياسية فيه ذات مرة بشكل عنيف . يجب أن تتركز أهدافنا الحالية ليس على " الأرض المقدسة " بل على أرض خاصة بنا . فنحن لانحتاج إلا إلى رقعة أرض لإخوتنا المساكين ، تبقى ملكاً لنا ولا يمكن لقوة أجنبية طردنا منها . إلى هناك سنأخذ معنا أهم ممتلكاتنا المقدسة التي حفظناها من حطام بلدنا السابق ، فكرة الإله والكتاب المقدس . هذان الشيطان فقط جعلنا من وطننا القديم أرضاً مقدسة وليس اورشليم أو(نهر) الأردن . ولربما تصبح الأرض المقدسة ثانية لنا ، وإذا كان ذلك فهذا أفضل . ولكن قبل كل شيء علينا أن نقرّر - وهذه نقطة حاسمة - أي دولة يمكن أن تشرع أبوابها لنا ، وفي نفس الوقت أن تكون مهياً لتقدّم لليهود، المُجبرين على ترك بيوتهم من كافة المناطق ، ملاذاً آمناً غير متنازع عليه ويتمتع بالخصوبة المنتجة "

4- " .. بالطبع ، ليس لدينا عبقرية موسى ، فالتاريخ لا يجود بمثل هؤلاء القادة بشكل متكرر . ولكن المعرفة الواضحة لأهم احتياجاتنا ... سينجب بيننا عدداً من أنصار الشعب المعروفين والمحترمين والمتحمسين لاستلام القيادة ، وربما لن يكونوا أقل مقدرة من ذلك الرجل الأوحده ليحررونا من الخزي والاضطهاد .. . ويجب على هؤلاء الدعوة لعقد مؤتمر ... يمثل مصالحنا الوطنية .. وعليهم أو من يمثلهم (كمجلس إدارة) السعي بشكل رئيسي وخاص لإيجاد وطن آمن ومنيع للفائض من اليهود الذين يعيشون كطبقة عاملة (بروليتاريا) في مختلف الدول ويشكلون عبئاً على المواطنين الأصليين "

5- " .. وبالطبع ، فإنني لا أقترح هنا هجرة موحّدة لجميع الناس . فأعداد اليهود قليلة نسبياً في الغرب ويشكلون نسبة صغيرة من عدد السكان ، ولهذا السبب فقد تيسّرت أوضاعهم إلى حد ما وحتى أنهم تجنّسوا وتآقلموا ، فيمكن لهم مستقبلاً البقاء حيثما هم . كما يمكن للأثرياء أيضاً البقاء حتى في البلدان التي لايرحب فيها باليهود عن طيب خاطر "

6- " .. إن من أولى مهام (مجلس الإدارة) إيجاد أرض تكون مهياً لأهدافنا ... ، وفي هذا المجال هناك بلدان ، يقعان على طرفين متعاكسين من كوكب الأرض ، يتنافسان مؤخراً مع بعضهما البعض على الصدارة (أي فلسطين وأمريكا الشمالية) وأوجدا اتجاهين متعاكسين للهجرة اليهودية "

7- " .. ولذلك فإن اختيار موطن لليهود يلبي جميع المتطلبات .. يجب أن يوكل إلى جهة واحدة تكون قادرة ، بعد إجراء تحريات معمقة ، على تحديد أي من هاتين القارتين وعلى أي أرض فيهما يجب أن يقع اختيارنا النهائي . بعد ذلك فقط ، وليس قبله ، يجب على مجلس الإدارة مع جهة متحدة من الرأسماليين ، كمؤسسين لشركة مساهمة تنظم لاحقاً ، اكتساب رقعة أرض تكفي لاستيطان عدة ملايين من اليهود عبر الزمن . ويمكن لهذه الرقعة أن تشكل جزءاً صغيراً من أراضي أمريكا الشمالية أو " باشاوية " مستقلة في تركيا الآسيوية معترف بها من قبل المحكمة العثمانية والقوى الأخرى (الأوروبية) كرقعة محايدة "

8- " .. وبعد إجراء المسوحات الكاملة ونشر المخططات التفصيلية للرقعة وتوصيفها بالكامل ، يباع جزء منها لليهود بمبلغ مناسب يُحدد بدقة كنسبة إلى سعر الشراء الأصلي ، وربما أعلى من النسبة بقليل . وسيكون جزء من دخل عملية البيع والأرباح مخصصاً للشركة المساهمة ، أما الجزء الآخر من الدخل فيصب في صندوق يدار من قبل مجلس الإدارة وذلك من أجل إعالة المهاجرين المعوزين . ولتأسيس مثل هذا الصندوق ، يمكن أيضاً لمجلس الإدارة فتح باب اكتتاب وطني . ومن المتوقع أن إخوتنا في كل مكان سيرحبون بمثل هذه المناشدة للإكتتاب وأن معظم التبرعات السخية ستكون من أجل هدف مقدس "

9 - " .. يجب أن تحمل كل وثيقة ملكية اسم الشاري ، وأن توفّع من مجلس الإدارة والشركة . كما يجب أن تحمل الرقم الدقيق لقطعة الأرض المخصصة على المخطط العام بحيث يمكن لكل شار أن يعرف تماماً موقع قطعة أرضه أو حقله أو عقاره والتي اشتراها كملكيتته الخاصة "

10- " .. وإذا ما وجد الخبراء الأفضلية في فلسطين أو سوريا ، فهذا القرار لن يبنى على فرضية تحويل البلد ، عن طريق العمالة والصناعة ، إلى بلد منتج إلى حد بعيد . وفي هذه الحالة فإن سعر الأرض سيرتفع بالتناسب . أما إذا ما فضل الخبراء أمريكا الشمالية فعلياً الإسراع في ذلك "

11- " .. إن كفاح اليهود ، من أجل وحدتهم الوطنية واستقلالهم كأمة راسخة ، لا يتضمن فقط المبررات المتأصلة لكفاح كل أمة مقهورة ، بل تتم إعداده أيضاً لكسب الدعم من تلك الشعوب التي لا ترغب بنا الآن . ويجب أن يكون هذا الكفاح عاملاً في السياسات الدولية المعاصرة تصعب مقاومته وموجّهاً إلى التبعات الكبرى المستقبلية " .

12 - " ولكن ماذا يتوجب علينا فعله في المرحلة القادمة ؟ وكيف علينا أن نبدأ ؟ في اعتقادي أن نواة هذه البداية هي في أيدي المنظمات (اليهودية) القائمة الآن ... والتي يتوجب عليها عقد مؤتمر قومي تكون هي مركز ثقله .. "

في واقع الأمر ، لم يكن مؤلف هذا الكُتَيْب المغفل الإسم سوى " يهوذا لايب بينسكر " 48 ، المولود عام 1821 في بولندا ، والتي كانت تتبع آنذاك إلى روسيا القيصرية (حدود المستوطنة) . وقد يكون هذا الكُتَيْب واحداً من أهم الكتابات والدعوات اليهودية المبرمجة في القرن التاسع عشر لإنشاء وطن يهودي ، إن لم تكن أهمها على الإطلاق ، وذلك للأسباب التالية :

- نشر في مطلع عام 1882 باللغة الألمانية بُعيد زيارة قام بها بينسكر إلى أوروبا الغربية شملت كلاً من فيينا وبرلين وباريس وغيرها . ولعل سبب كتابة بينسكر بالألمانية وليس الروسية وإغفاله عمداً وضع إسمه هو الرغبة في تعميم أفكاره وطروحاته في أوروبا الغربية من دون أن يبيّن أن كاتبها من روسيا القيصرية .

- يقرّ بينسكر بأن المسألة اليهودية لا يمكن حلّها إلا بإيجاد رقعة أرض خاصة باليهود نظراً لأن أمم العالم التي يعيشون بينها لا تستطيع دمجهم أو تقبلهم أو حتى هضمهم .

- في المرحلة التاريخية التي كانت فيها أوروبا تتفاعل مع الحركات التنويرية والانعتاق ، يرفض بينسكر التفاعل مع هذه الحركات ويطالب بانعتاق " ذاتي " وخاص باليهود ، وبتعبير آخر فهو يرفض بشكل قاطع فكرة اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها .

- تتبدى النزعة الدينية لدى بينسكر في أن الكتاب المقدس - العهد القديم - هو أهم الممتلكات اليهودية - وفي حين أنه يطالب ظاهراً بقطعة أرض لليهود أينما كانت ، فهو يشير بشكل واضح إلى التنافس بين أمريكا و فلسطين .

- قد لا يفوت على قارئ كُتَيْب بينسكر العقلية " التجارية " المهيمنة على الفكر اليهودي عامة ، والتي نبّه إليها المؤرخون والفلاسفة وعلماء المجتمع وغيرهم ، عندما تتحول المسألة اليهودية والمعاناة والاضطهاد والشتات إلى مشروع سكني ومجلس إدارة واكتتاب وتوزيع عقارات ومخططات معمارية وأرباح استثمارية . وبلا شك ، كان بينسكر في هذا يقتدي بتوصيات الربّ المتكررة في العهد القديم :
" ولكن عليك أن توزع هذه الأراضي بالقرعة على الشعب لتكون ملكاً لهم كما أمرتك (يشوع 13 : 6)
.. أما أنتم فتخططون الأرض وتقسّمونها .. وتسجلونها .. (18 : 6) .. فسار الرجال وتجوّلوا في الأرض وخططوها وسجّلوها في كتاب .. (18 : 9) .

- ولعل أخطر ما ورد في فكر بينسكر دعوته إلى يهود العالم أن يكون كفاحهم المستقبلي عاملاً في السياسات الدولية المستقبلية تصعب مقاومته . وفي واقع الأمر ، فإن الأحداث العالمية اللاحقة قد أثبتت ، بما لا يقبل الشك ، تبني جميع الحركات اليهودية و الصهيونية هذه الفلسفة وإلى يومنا هذا .

في شباط \ فبراير 1896 أصدر تيودور هرتزل في فيينا كتابه الشهير " دولة اليهود " 49 باللغة الألمانية أيضاً . وإن ما يسترعي الانتباه ، أنه عندما نشر بينسكر كتيبه عن التحرر الذاتي كان تيودور هرتزل يومها شاباً ، لم يكمل بعد الثانية والعشرين من عمره وهو على مقاعد الدراسة في جامعة فيينا ، وهكذا جاء كتاب هرتزل بعد أربعة عشر عاماً من كتيب بينسكر . ولواستعرضنا أهم الأطروحات الرئيسية والهامة التي سوّق لها هرتزل في كتابه " دولة اليهود " وقارناها مع ماكتبه بينسكر قبل ذلك ، فسنجد التالي :

1- " .. وإذا ما وفرت لنا دولة ذات سيادة رقعة واسعة في هذا الكوكب بحيث تفي بمتطلبات أمة ، فإن ما يتبع ذلك سنتدبره بأنفسنا " و " ... وكما ذكرت سابقاً ، يبقى هدفنا الأول هو السيطرة على رقعة أرض كبيرة تحقق متطلباتنا المشروعة وتضمن لنا عبر القانون الدولي " . أليس هذا ما أشار إليه بينسكر في الفقرة 3 أعلاه ؟

2- " .. إن محرّك تنفيذ العملية (أي الاستيطان) سيتم عبر تشكيل مجلس يسمى - جمعية اليهود - وإضافة إلى ذلك سيكون هناك شركة يهودية ، هي عبارة عن جهة منتجة اقتصادياً " . ألا يتفق هذا الطرح تماماً مع فكرة بينسكر بإنشاء مجلس إدارة إضافة إلى شركة مساهمة من الرأسماليين اليهود ، كما هو مبين في الفقرات 4 و 7 أعلاه ؟

3- وفي حين يذكر بينسكر أن التنافس على أرض لليهود يدور ما بين أمريكا الشمالية وبين باشوية عثمانية في آسيا (أي فلسطين أو سوريا) ، يتفق معه هرتزل في مسألة وجود خيارين : " .. ستؤخذ بعين الاعتبار رقتين اثنتين ، فلسطين والأرجنتين " . ويلاحظ هنا إن القاسم المشترك بين الأطروحتين هو فلسطين !

4- لا يقترح بينسكر هجرة موحدة لجميع اليهود (الفقرة 5 أعلاه) ويتفق معه هرتزل في الرأي إذ يقول : " وليس علينا أن نتخيل أن هجرة اليهود ستكون دفعة واحدة ؛ بل على مراحل مستمرة قد تستغرق عدة عقود " .

5- يرى بينسكر أن الوطن القومي سيكون بشكل رئيس للطبقة اليهودية البروليتاريا (الفقرة 4 أعلاه) . وتحظى هذه الفكرة بموافقة هرتزل : " وسيكون أوائل من سيهاجر هم عمالنا غير المؤهلين من المخزون البشري الهائل في روسيا ورومانيا .. سيغادر اليانسون أولاً ويليهم الفقراء ثم المُنعمون مادياً وفي آخر المطاف الأثرياء "

6- وعندما يقترح بينسكر أن تكون بداية تنفيذ الخطة عن طريق الدعوة إلى عقد مؤتمر قومي للمنظمات اليهودية (الفقرة 12 أعلاه) نجد أن هرتزل يتجاوب مع هذه الدعوة بعقد أول مؤتمر لمنظمة الصهيونيين العالمية في بازل عام 1897، أي بعد عام واحد من نشر كتابه .

7 - ولعل أهم وأخطر ما يلفت النظر عند الكاتبين هو ضرورة كسب دعم الدول التي لا ترغب ببقاء اليهود بين شعوبها وأن تصبح مسألة الوطن القومي لليهود جزءاً من السياسة الدولية . لنقارن الأطروحتين . يقول بينسكر : " .. إن كفاح اليهود ، من أجل وحدتهم الوطنية واستقلالهم كأمة راسخة ، لا يتضمن فقط المبررات المتأصلة لكفاح كل أمة مقهورة ، بل تم إعداده أيضاً لكسب الدعم من تلك الشعوب التي لا ترغب بنا الآن . ويجب أن يكون هذا الكفاح عاملاً في السياسات الدولية المعاصرة تصعب مقاومته وموجّهاً إلى التبعات الكبرى المستقبلية " . أما هرتزل فيقول : " .. إن حكومات جميع الدول التي ابتليت بمعاداة السامية ستكون شديدة الحماسة لمساعدتنا على نيل استقلالنا المنشود " ويكرر ذلك في موضع آخر : " إن العداء للسامية لا يمكن حله إلا بجعله مسألة سياسية دولية ، تناقش وتحل في مجلّس لأمم العالم المتمم 50 " إن المقتطفات السابقة ما هي إلا جزء يسير وخطوط عريضة لمدى توحد الأفكار المتعلقة بإنشاء وطن لليهود عند الرجلين . وباختصار ، يمكن القول إن بينسكر هو من وضع المخطط الأولي للمشروع ، أما هرتزل فقد رسم مجمل التفاصيل بدقة وأدخلها حيز التنفيذ العملي . نقطة أخرى هامة لا بد من الوقوف عندها ملياً وتتعلق باختيار المكان . فالقراءة العابرة للنصّين ستوحى ، بلا شك ، بطرحهما لخيارين ، فلسطين وأمريكا . وسواء كان المعني بأمريكا ، الولايات المتحدة أو كندا أو الأرجنتين فهذه كانت دولاً مستقلة ذات سيادة ، ومن الصعب أن نصدق أنها ستسمح باقتطاع جزء من أراضيها لزرع وطن يهودي مستقل أو حتى حكم ذاتي . كان بينسكر يعرف سلفاً أن ذلك شبه مستحيل عندما تساءل : " أي شعب سيوافق على استيطان أمة داخل حدوده ؟ " . وفي الواقع ، فإن بينسكر ومن بعده هرتزل كانا يتطلعان سوية باتجاه واحد نحو فلسطين ، رغم محاولات التعمية على ذلك . لم يكن الدافع الديني غائباً أبداً فيما كتباه . الله والكتاب المقدس وأرض الميعاد وموسى وصلب المسيح والتائهون منذ

50 نذكر هنا أن عصبة الأمم The League of Nation قد تأسست بعد ذلك في عام 1920 وفي أعقاب مؤتمر باريس للسلام .

ألفي عام ، أو الأمة التي تحدّرت من المكابيين ⁵¹ وغيرها من المصطلحات التي تنساب بين حين وآخر في نشرة بينسكر . ويتكرر المشهد لدى هرتزل ، وإن كان بدرجة أقل ، عندما يستشهد بأرض الميعاد وبمقولة " السنة القادمة في أورشليم ، أوسيكون الهيكل مرئياً من مسافة بعيدة .. ، وسيُهَبّ المكابيون ثانية " وغير ذلك . فالاستشهاد بالتعابير الدينية والتاريخية في هذه الحالة ما هو إلا شعور باطني وتحريض ضمني على ترجيح خيار فلسطين أرض الميعاد على أمريكا أو غيرها . هذا ما يفسّر لنا أيضاً رفض اليهود عرض وزير الداخلية الروسي على ممثلهم ، في نيسان \ أبريل 1882 ، نقلهم إلى المناطق القليلة الكثافة في روسيا لإبعادهم عن جموع الفلاحين وأعمال الشغب ، بذريعة أنها مناطق غريبة عليهم وأنها بعيدة !! ⁵² .

هل كان تزواج أفكار الرجلين مجرد توارد في الخواطر ، أم أننا فعلاً أمام سرقة فكرية متعمدة من قبل هرتزل ؟ لقد تفادى كتّاب التاريخ والسيرة الذاتية اليهود الخوض في هذا الموضوع ذي البعدين السياسي والتاريخي حفاظاً على قدسية هذا الرجل ، وعلى الرغم من إشارة هرتزل إلى ذلك في مذكراته الخاصة .

يذكر هرتزل في مذكراته إنه سمع باسم " بينسجر " (كتب اسمه خطأ في مذكراته !) للمرة الأولى في عام 1895 من أحد محدثيه الذي أخبره بأن هذا الروسي كافح من أجل القضية اليهودية ودعا إلى الحصول على وطن قومي لليهود ، وأنه توفي في عام 1891 . وكتب هرتزل أنه سيقراً ما كتبه هذا الرجل عندما يتوفر لديه الوقت إلا أنه لم يتمكن من قراءة الكتيّب إلا بعد أن دفع كتابه هو " دولة اليهود " للمطبعة . وقد علّق هرتزل على ذلك بالقول : " هنالك تطابق مذهل في الأجزاء الحساسة (للكتابين) وتشابه في الأجزاء الاستنتاجية . ولكم يؤسفني أنني لم أقرأ كتيّب " بينسجر " قبل طباعة كتابي ؛ وفي المقابل ، فإن من حسن الحظ أنني لم أعرف عنه شيئاً من قبل وإلا لكنت قد تخلّيت عن طباعة كتابي " كان من الممكن أن نماشى هرتزل في إنكاره لمعرفة بينسكر وكتاباته ، لولا أن الطبعة الأولى من مذكراته ، كما يشير إلى ذلك أحد الباحثين اليهود ⁵³ ، قد تم إعادها من المقربين لهرتزل والمفكرين الصهاينة من أمثال ليون كيلنر ، إضافة لابن هيرتزل هانس وغيرهم ؛ كما أن المذكرات بحدّ ذاتها غير كاملة وغير موثوقة وصدرت عن دار نشر صهيونية . وقد تم حذف مقاطع بكاملها تشير بسلبية إلى شخصيات معينة في الحركة الصهيونية أو إلى بعض التفاصيل المالية والسياسية . وتعبير آخر فإن مقص الرقابة الصهيونية قد امتد إليها بالحذف والتعديل أو بالأصح التزوير .

⁵¹ المكابيون : Maccabees مجموعة من اليهود قاموا بثورة ضد السلوقيين اليونان في فلسطين بدءاً من عام 164 قبل الميلاد ، وبقيت مملكتهم قرابة المئة عام .

⁵² أنظر كتاب دوينوف (المرجع 38 ، الصفحة 329 و 355)

⁵³ Theodor Herzl's Diaries as a Bildungsroman by Shlomo Avineri , Jewish Social Studies, Vol.5

ويمكنني ، من دون تحفظ ، الادعاء بأن هرتزل قد قرأ " التحرر الذاتي " وتبنى جميع الأفكار الواردة فيه ثم توسّع في شرحها في كتابه " دولة اليهود " ونسبها إلى نفسه لكون الكتيّب مغفل الاسم أولاً ولأن مؤلفه قد توفي قبل ذلك بخمس سنوات . وهناك احتمال الآخر هو أن بينسكر ، الطبيب البولندي الروسي ، قد رأى أن فرص تحقيق أفكاره ستكون أكبر إذا عهد نسخة من كتيّبه لشابّ طموح ، يحضّر الدكتوراة في الحقوق في جامعة فيينا ، ويتمتع بحرية الحركة في أوروبا الغربية ذات الثقل السياسي والمالي مقارنة مع مسقط رأسه روسيا .

النواة الأولى للصهيونية " أحباء صهيون "

بعد أن نشر بينسكر كتيّبه بقليل ، تشكلت أولى الحركات الصهيونية في حدود المستوطنة الروسية ، وعرفت باسم حركة " أحباء صهيون " 54 ، وكان هو أحد مؤسسيها بالإضافة إلى الحاخام صاموئيل موهيلفر وموشيه ليليبينلوم . كان هدف هذه الحركة تشجيع ودعم الهجرة إلى فلسطين وإنشاء المستوطنات الزراعية فيها . وقد انتشرت أحباء صهيون في العديد من مدن روسيا القيصرية وخارجها . وبالفعل ، دفعت أحداث الشغب والعنف في روسيا وكتيّب " التحرر الذاتي " إلى بدء حركات الهجرة والاستيطان الأولى إلى فلسطين ، اعتباراً من منتصف عام 1882 والسنوات القليلة التالية . كانت الهجرة آنذاك على شكل مجموعات صغيرة من روسيا القيصرية ورومانيا وبلغاريا . وتذكر الموسوعة اليهودية أن عام 1882 شهد تأسيس أول مستعمرة يهودية - روسية زراعية في فلسطين " ريشون لوتسيون " ، تقع عند عين هقوري المذكورة في التوراة ، وكانت مكونة بداية من ستة مهاجرين روس فقط . وفي نفس ذلك العام ، شكلت نوى لثلاث مستوطنات أخرى هي غديرار بالقرب من أكارون التوراتية وزيكرون يعقوب القريبة من حيفا وروش بيناح المجاورة لصدد ؛ وتتوزع هذه المستوطنات الزراعية في كل من يهودا والسامرة والجليل الأعلى وفق التسميات اليهودية .

لنعد إلى نقطتين أساسيتين سبق ذكرهما . الأولى ، تمّ إنشاء هذه المستوطنات عندما كان هرتزل لا يزال في مطلع العشرينات من عمره وعلى مقاعد الدراسة ؛ والثانية ، هي أن بينسكر كان قد اقترح أن يوكل اختيار الموطن الجديد إلى جهة واحدة بعد إجراء تحريات معمقة . وواضح هنا أن الجهة التي أوكل إليها إجراء هذه التحريات المعمقة لم تكن سوى حركة أحباء صهيون التي يديرها بنفسه . وواضح أيضاً أن مثل هذه التحريات لم تجر في أية بقعة من القارة الأخرى التي اقترحها ، أي أمريكا . كان قرار استعمار فلسطين الاستيطاني قد اتخذ في هذه الفترة من عام 1881\82 والمفاضلة بين مواطنين لليهود لم يكن إلا لذرّ الرماد في العيون . ويبقى سؤال آخر لا بد من الإجابة عليه ، لماذا أگد

بينسكر وحركة أحباء صهيون على المستوطنات الزراعية بالدرجة الأولى كمقدمة للاستعمار الاستيطاني ؟ فمن المعروف تاريخياً أن اليهود عموماً لم تكن لهم جذور أو تاريخ معروف في ممارسة الزراعة في جميع الأماكن التي ولدوا وعاشوا فيها وبخاصة في حدود المستوطنة الروسية . فاليهود ، كما أشار بوروخوف ، لا يفضلون اكتساب رزقهم من الطبيعة . وهناك شواهد على ذلك في دول أخرى يذكرها الصحفي اليهودي- الفرنسي برنارد لازار ، في كتابه " معاداة السامية " 55 . ففي عهد نابليون صدر قرار حظر على اليهود الألبانيين دخول المقاطعات لمدة عشر سنوات إلا إذا عملوا في مجال الزراعة . ورغم ذلك ، لم يتحول يهودي واحد إلى هذه المهنة . كما يبدو ذلك واضحاً من مقولة المصلح الديني مارتين لوثر " يجب علينا أن نجبرهم (أي اليهود) على اكتساب أجورهم من الزراعة " .

وهكذا ، فعلى الرغم من الدعم المعنوي والمادي والإعلامي الذي حظيت به هذه المستوطنات الزراعية الرائدة من حركة أحباء صهيون في روسيا أو أوروبا وأمريكا (وبخاصة من قبل المليونير اليهودي البارون إدوموند دو روتشيلد) لم تكن النتائج مشجعة إطلاقاً في المراحل الأولى على الأقل . ويؤكد ذلك شاهد عيان هو القس جون بيترز 56 : " عندما زرت فلسطين عام 1890 ... كانت هناك مساح لنقل اليهود المضطهدين في روسيا إلى الأرض هناك . وكان هؤلاء غير معتادين على العمل اليدوي وبخاصة الزراعي ، فقد كانوا يجلسون تحت المظلات اتقاءً من حر الشمس ويستأجرون (عمالاً) من أهالي المنطقة - السوريين - للقيام بالعمل " . كما كتب أحد الصحفيين الأمريكيين 57 ، في عام 1926 انطباعاته حول إحدى أوائل المستعمرات الصهيونية الزراعية التي أنشئت قبل حوالي أربعين عاماً في سهل زرعين . وذكر إنه كان من الصعب عليه تصديق عدم وجود من يعمل بجد في هذه الأرض الخصبة وأن سكانها لا يزالون يعيشون بشكل أو بآخر على قروض ومساعدات الصندوق الصهيوني الأمريكي ؛ و برّر ذلك أن " اللجنة الصهيونية " فشلت في اجتذاب شريحة نشطة من اليهود تعمل في الأرض ، فاضطرت لاستقدام مجموعة من الكسالى وعديمي الطموح من روسيا والنمسا وبلغاريا ومن براري القوقاز . أما الشريحة الأفضل من المهاجرين فكانت ترفض العمل في الأرض بل وتصرّ على العمل في التجارة و المتاجر صغيرة في القرى أو المدن . كما ذكر أن بعض المستوطنات قد أنشئت كملكية خاصة ولأهداف استثمارية . فالأوكراني رويبن ليرز أنشأ مستعمرة ناحالات رويبن وباع جزءاً من أراضيها إلى بعض المهاجرين الروس واستغل باقي الأراضي في زراعة كروم العنب وصناعة النبيذ لغرض تجاري بحت .

Antisemitism , Bernard Lazare, 1894 55

The International Jew , Henry Ford Sr , Vol.3 , 1920 56

Broken Promises in Palestine , Gwald Matthews, Dearborn Independent, 1926 57

إن بذور الحركة الصهيونية ، متمثلة في حركة أحباء صهيون الروسية وأتباعها ، كانت دينية بشكل كبير . وسأدعي هنا في تفسير حماسها لإنشاء المستوطنات الزراعية في فلسطين أنها كانت تريد تنفيذ أوامر الإله " يهوه " وتعاليم الحاخامات التلموديين المتشددين . أو بتعبير آخر، كانت تريد اتباع نفس طريقة الاستطلاع والتجسس التي لجأ إليها النبي موسى وأتباعه قبيل دخولهم أرض كنعان . وإذا كان موسى آنذاك يقف على تخوم فلسطين ، لم يكن بوسع يهود حدود المستوطنة ودول شرق أوروبا سوى الهجرة إليها كمجموعات صغيرة لاستطلاع أوضاعها عن كثب وبشكل لا يثير ريبة الأهالي والسلطان العثماني. هكذا جاء الأمر من يهوه في كتاب العدد من التوراة 17-20 : " 17 وعندما أطلقهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان قال لهم انطلقوا من هنا نحو الجنوب ، ثم اصعدوا إلى الجبل 18 واستكشفوا البلاد وأوضاعها وهل شعبها المقيم فيها قوي أم ضعيف ؟ أكثر هو أم قليل 19 وما هي طبيعة الأرض الساكن فيها ، أصالحة هي أم رديئة ؟ وما هي المدن التي هو قاطن فيها ؟ أمخيمات هي أم حصون ؟ 20 وكيف هي أرضه : أخصبة أم قاحلة ؟ فيها شجر أم جرداء .. ؟ " . وهكذا ، جاءت نواة المستوطنين من شرق أوروبا لا ليزرعوا ويحصدوا لكونهم غير مؤهلين حاضراً و تاريخياً لمثل هذه الأعمال ، بل ليرفعوا تقاريرهم التجسسية وتحرياتهم المعمقة حول يهودا والسامرة والجليل الأعلى ؛ ليس إلى النبي موسى ، هذه المرة ، بل إلى بينسكر الذي كان قد طالبهم بإجراء المسوحات الكاملة والمخططات التفصيلية للأرض وتوصيفها . ولا أدلّ على ذلك ما ورد في الكتاب السنوي ليهود أمريكا لعام 1905\06⁵⁸ أنه حتى ذلك العام تم تأليف مئة كتاب حول فلسطين ؛ وأنه في ال 25 سنة الماضية (أي منذ أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر) جرى استكشاف كل فلسطين وشرق وغرب نهر الأردن وتم مسح الأراضي ورسم الخرائط الطبوغرافية والجيولوجية ، كما قامت بالحفريات العديد من البعثات للآثار في كل من فلسطين والأردن وسورية ولبنان وسيناء !!! .

وفي المقابل ، كان على أركان أحباء صهيون أن يمدّوا رواد المستوطنين بالدعم المالي اللازم ، لتشجيعهم ولضمان بقائهم في فلسطين ، عن طريق إخوتهم في الدين في أوروبا الغربية وأمريكا ، عملاً بأوامر " يهوه " في كتاب عزرا 4:4 : " وعلى أهل المواضع التي يقيم فيها المسبيون المتغربون أن يمدوهم بالذهب والفضة والدواب " .

صهيونية هرتزل

رغم تطابق أفكار بينسكر وهرتزل ، كان الأخير يتبنى رأياً خاصاً بأسلوب التنفيذ العملي الذي يجب اتباعه في المراحل القادمة وبالجهد التي تقود هذه العملية . لقد عارض هرتزل وأنصاره في الحركة الصهيونية الثانية الأسلوب العقيم والبطيء الذي اتبعته حركة أحباء صهيون في فلسطين من إنشاء للمستوطنات الزراعية ؛ فقد وجد أن استمرار هذا النهج يعني أن اليهود لن يوطنوا إلا بعد تسعمائة عام . وكان يرى أن المقايضة الدبلوماسية والضغط السياسي والاقتصادي الدولي ، الذي يتقنه يهود العالم الغربي ، هو الطريق الأنجع والأسرع للوصول إلى إنشاء دولة إسرائيل . وفي الواقع ، كان هرتزل يريد دولة لإخوته المساكين في روسيا وأوروبا الشرقية ، يوفر لهم فيها المقومات الأساسية للحياة . دولة حقيقية في أرض الميعاد وليس مجرد مستوطنات تتوسع مع مرور الزمن . أما يهود الغرب فيبقون حيث تواجدهم طالما يتمتعون بالنفوذ الاقتصادي والسياسي . وإذا ما تحولت الظروف السياسية أو الاقتصادية في المستقبل في غير صالحهم ، فإن هذه الدولة ستكون ملاذاً آمناً لهم بعد أن يكون إخوتهم يهود حدود المستوطنة والشتيتلات (من البروليتاريين والفقراء) قد أكملوا بسواعدهم البنى الأساسية لها ورسخوا قواعدها .

أما قيادة الحركة والمقايضة السياسية على مستوى العالم فيجب أن تكون من نصيب يهود أوروبا الغربية المواكبين لحركات التحرر . فالأعمال الكبيرة تستلزم رجالاً من الغرب لقيادة الطليعة . رجال لا يتحدثون عن مصطلح بالٍ يدعى - أحباء صهيون - بل مصطلح غربي جديد ومعاصر هو الصهيونية 59 .

وإضافة إلى كتابه الرئيسي " دولة اليهود " ، ترك هرتزل مدونات ومذكراته وكماً هائلاً من التعليقات والمحادثات سجلها أنصاره ومعارضوه ترسم بمجملها صورة واضحة لشخصية هذا الرجل وأفكاره ، يمكن تحديدها باقتضاب في النقاط التالية :

- الطموح الشخصي . إن إنكار هرتزل معرفته بينسكر وطروحاته قبل كتابته " دولة اليهود " (أو هكذا أريد لنا أن نعتقد) يشير إلى رغبته في ردّ مجمل الأيديولوجية الصهيونية إلى ذاته . ومما لا شك فيه أن هرتزل قد توقف ملياً عند مقولة بينسكر : " .. (إن) المعرفة الواضحة لأهم احتياجاتنا .. سينجب بيننا عدداً من أنصار الشعب المتحمسين لاستلام القيادة ، وربما لن يكونوا أقل مقدرة من ذلك الرجل الأوح (النبي موسى) ليحررونا من الخزي والاضطهاد " . لقد تولدت لدى هرتزل القناعة أنه ليس أقل مقدرة من نبيه موسى عندما كتب : " أراد موسى ، في أيامه ، توزيع الأراضي ليضمن الغاية من العدالة الاجتماعية . وكما سترون مستقبلاً فإن منهجي سيخدم هذا الغرض بنفس الدرجة " . وفي مخاطبته يهود العالم يقول : " وحتى إذا ما قررنا الرحيل إلى أرض الميعاد سيحتاج

الأمر إلى وقت طويل . لقد اقتضى موسى الأمر أربعين عاماً ! " . أوامر يهوه لموسى اقتضت أن يتيه اليهود أربعين عاماً في الصحراء قبل أن يدخلوا أرض الميعاد ، أما أوامره لنبيه الجديد هرتزل فاقتضت أن يبقوا في الشتات خمسين عاماً من بعده : " في (مؤتمر) بازل أنشأت دولة إسرائيل.. وستعرفون ذلك ربما في خمس سنوات وحتماً في خمسين سنة " 60 . وهكذا نفهم لماذا استمات أسباط هرتزل الجدد لتحقيق نبوءة الخمسين عاماً " الحتمية " في الفترة ما بين المؤتمر الصهيوني الأول 1897 ومشروع تقسيم فلسطين 1947 .

- العنصرية . اعتبر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 3379 ، في عام 1975 ، الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية . لقد جاء القرار هذا ليصف أيديولوجية سياسية بعينها ، حمل رايتها على مستوى العالم تيودور هرتزل وأسباطه من بعده . وفي الحقيقة ، فسمة العنصرية ليست حصراً على الصهيونية ، بل هي موجودة أصلاً في الفكر الديني اليهودي المتطرف والذي تجسده مقولة " شعب الله المختار " . فهناك شواهد عديدة مستمدة من التوراة والتلمود والتعاليم الأرثوذكسية للاخامات ، تمت الإشارة إلى بعضها سابقاً في معرض الحديث عن انغلاق اليهود على أنفسهم وعدم اندماجهم مع الشعوب التي عاشوا مئات السنين بين ظهرانيها .

لقد سعى هرتزل لصرف أنظار العالم الغربي عن هذه الحقيقة المعروفة ، والتي كانت أحد أسباب كراهية العالم لليهود ، ووجهها بما يخدم مصلحة اليهود في إنشاء دولتهم من جهة ومصالح الغرب من جهة أخرى من خلال ابتداع مفهوم جديد للعنصرية يقوم على أساس " التحضر والتخلف " و " التمدن والبربرية " ؛ حاول أن يقنع الغرب بأسره أن اليهودي المقيم بينهم لا يقل شأنًا في مدنيته وتحضره عن الأوروبي . هذا ما أراده عندما كتب مخاطباً الأوروبيين : " .. علينا أن نشكل هناك (في فلسطين) جزءاً من التحصينات والصور الواقية لأوروبا في مواجهة آسيا وقاعدة متقدمة للتمدن أمام البربرية .. " 61 .

ومما لا شك فيه أن هذا المفهوم العنصري الجديد يحتاج إلى دراسة معمقة لست في صدد الدخول فيها . ما سأركز عليه هو ما يحمله فكر هرتزل في مقولته هذه من مفارقة تقارب السذاجة إلى حد كبير . فهو يدّعي أن اليهود في الشتات ، المضطهدين من معادي السامية ، هم شعب واحد جذوره من العرق السامي . وهناك إجماع لدى جميع المراجع والموسوعات العالمية بأن مصطلح السامية ينطبق على

⁶⁰ Theodor Herzl, "Diaries", 1897

" We should there form a rampart of Europe against Asia, an outpost of civilization as opposed to barbarism .. "

⁶¹

مجموعة من الشعوب تتقارب في لغاتها وأن موطنها الأساسي هو " آسيا " . وهذا المصطلح ورد أصلاً في العهد القديم للمتحدثين من سام ابن نوح ⁶² .

هرتزل ، إذًا ، آسيوي لكونه سامياً ⁶³ . وفي اتهامه للأسويين بالبربرية يضع نفسه وشعبه ، الطامح في العودة إلى أرض الأجداد ، طرفاً من هذه البربرية التي يسعى لمواجهتها . أمر آخر ، كيف لنا أن نفسر دفاعه عن التمدن الأوروبي الذي أدلّ اليهود واضطهدهم لكونهم ساميين كما يدعي المؤرخون اليهود ؟ . وإلى يومنا هذا ، يسود هذا التناقض الأيديولوجي في الأدبيات والخطاب اليهودي الذي يكرّس فكرة خصوصية وجود اليهود (أو دولتهم إسرائيل) في آسيا أمام المجتمعات الأوروبية والغربية الطامحة منذ القدم إلى الهيمنة على الشرق " نحن سام - أوربيون " ؛ و خصوصية كونهم " أورو - ساميين " أمام المجتمعات الآسيوية المتطلّعة إلى تقنيات الغرب . نحن شعب " يهوه " المختار لنكون صلة الوصل بين الشرق والغرب والسמاسة المعتمدين من أعالي السماء بين هذين العالمين ! .

- تفعيل العامل الدولي . لقد سبق أن أشرت إلى أن فلسفة تدويل المسألة اليهودية هي في الأساس من بنات أفكار بينسكر ، إلا أنه كان يعرف على ما يبدو أن ظروفه وموقعه في روسيا القيصرية لن يسمح له بإخراجها إلى حيز التنفيذ . وفي المقابل ، فإن هرتزل تنبئ هذه الفكرة بقوة لأنها كانت تخدم إلى حدّ كبير طموحاته الشخصية والقضية التي يسعى إليها . كانت فكرة التدويل تعني له إمكانية الاتصال بالقادة والقيصرة والمتنفذين وتدعم بالتالي موقعه السياسي والاجتماعي بين يهود العالم . وفي حين كان بينسكر يرى في المال اليهودي المصدر الأساسي لدعم بناء المستوطنات والمساعدة على الهجرة . كان هرتزل يرى فيه قوة هامة تسمح لليهود بالمقايضة أو بالتأثير على السياسة والاقتصاد الدوليين ويمكن تلمّس ذلك في مقولته الشهيرة : " وإذا ما رغب جلاله السلطان (العثماني) في إعطائنا فلسطين ، فبإمكاننا بالمقابل الشروع بتنظيم كافة الأمور المالية لتركيا " .

ومما لا شك فيه أن هرتزل كان واعياً تماماً للظروف الاقتصادية والسياسية السائدة في روسيا القيصرية آنذاك . فبعد أحداث العنف والشغب في حدود المستوطنة ، تراجعت الأحوال الاقتصادية لغالبية اليهود هناك وهذا ما دفعهم أكثر فأكثر إلى مواقع البروليتاريا الثورية والصراع الطبقي ⁶⁴ .

كان يرى أن جميع اليهود في العالم سيكونون جزءاً من الصراع الطبقي لأنهم كانوا موزعين بين البروليتارية و الرأسمالية . وعلى هذا الأساس أطلق هرتزل تهديده إلى العالم أجمع " عندما نسقط ، نصبح بروليتاريين ثوريين . وفي الوقت نفسه عندما نهض ، تنهض معنا أيضاً قوة مالنا الرهيبة "

⁶² "Semites" , Catholic Encyclopedia

⁶³ سنعود لمناقشة هذه النقطة فيما بعد

⁶⁴ كانت فلسفة كارل ماركس قد نشرت قبيل ذلك في المانيفستو (البيان) الشيوعي (1848) و رأس المال (1867)

إلى أمريكا

إن المزاج العام الذي كان سائداً بين معظم الجماعات اليهودية في حدود المستوطنة وشتتلاتها ، في أعقاب أحداث العنف والشغب (البوغروم) ، يختصره لنا بشكل درامي الزعيم العمالي اليهودي أبراهام كاهان⁶⁵ على النحو التالي :

" في صيف عام 1881 ، عندما كان الحي اليهودي في كييف يمتلئ بالتأوهات والأنين وعلى أرضه تتناثر حطام البيوت المهدمة ، دخلت مجموعة من الشباب إلى الكنيس الممتلئ بالضحايا الباكين من الأحداث الأخيرة ، وقالت للمصلين : " إخواننا ، نحن لجنة من الطلاب الجامعيين واليهود مثلكم ... لقد حاولنا إقناع أنفسنا بأننا أولاد أمتنا روسيا . ويا للأسف ! كنا مخطئين .. إذ ليس هناك أمل لبني إسرائيل في روسيا . إن الخلاص من الاضطهاد يلوح في الجهة الأخرى ، في أرض ما وراء البحار .. في أمريكا سنجد الراحة . سيخفق العلم الأمريكي ، بنجومه وأشرطته (الحمراء) فوق البيت الحقيقي لشعبنا . إلى أمريكا ، أيها الإخوة إلى أمريكا ! " .

في حقيقة الأمر ، لم تعد الأوضاع الجديدة السائدة في روسيا ملائمة لليهود في حدود المستوطنة . فأحداث العنف بينهم وبين الفلاحين قد أثرت بشكل كبير على أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية . ومن ثم جاءت تلك القوانين التي أصدرها القيصر الإسكندر الثالث في أيار ١ مايو 1882 والتي زادت من تقييد نشاطاتهم وحركتهم التجارية وبخاصة مدى تعاملهم مع الشريحة العظمى من الفلاحين . كان هذا أهم سبب لتطلعهم خارج الحدود . ولعل ما يؤكد ذلك ما ورد في دائرة المعارف اليهودية " .. وعلى الرغم من أن أحداث العنف كانت السبب المباشر والمحرّض لزيادة الهجرة ، فإن السبب الحقيقي كان بلا شك الظروف الاقتصادية غير الملائمة لليهود في روسيا " .

ولكن لماذا فضل اليهود في روسيا عموماً الهجرة إلى أمريكا ؟ هل كانت أصداً " حمى الذهب " ⁶⁶ ، التي اجتاحت أمريكا في القرن التاسع عشر ، قد وصلت إلى حدود المستوطنة الروسية ؟ وأي جماعة أفضل من بني إسرائيل في التقاط أخبار الذهب الذي استعبدتهم عبر التاريخ و جسده سفر خروجهم في التوراة ؟ هل وجدوا الباب مشرعاً للمهاجرين الجدد في بلد كان بحاجة ماسة إلى الأيدي العاملة أثناء تحوله آنذاك من مجتمع زراعي إلى صناعي ؟ أم أنه قد وصلت إلى أسماعهم تمنيات بعض الشخصيات الأمريكية المتحمسة لوشق المحيط الأطلسي ليهرب عبره اليهود من

The Russian Jew in America, Abraham Cahan , Atlantic Monthly, 1896

65

Gold Rush

66

" الفراعنة الروس " إلى الطرف الآخر من المحيط ، فدغدغت هذه الدعوات مشاعرهم الدينية منذرة بعبور أسلافهم البحر الأحمر ؟ ولا عجب إذ أن يكتب بعض اليهود بشكل حماسي أن الولايات المتحدة هي أرض الميعاد التي أخبرهم عنها أنبياءهم وأن نيويورك هي " أورشليم الجديدة " ، بل إن قمم جبال روكي هي جبال صهيون ⁶⁷ . في تلك الفترة ، لم تكن فكرة " الوطن القومي " قد تبلورت واتسعت بشكل واضح وعملي . ولم تكن هناك خطة مبرمجة أو قادة يهود يديرون الهجرة ، وبالتالي بدأت الهجرة إلى أمريكا وغيرها من الدول الغربية على شكل موجات جماعية وعشوائية تفتقر إلى التنظيم . وحتى بعد بينسكرو وهرتزل ، استمرت هذه الموجات البشرية في التدفق على الشواطئ الشرقية للولايات المتحدة بدءاً من ذلك العام ولعقود تالية .

عندما توالى الدعوات الأمريكية لليهود الروس إلى الهجرة ، كانت خبرة الأمريكيين في التعامل مع اليهود الذين وفدوا إليها في السابق مقبولة إلى حد ما . كان لديهم ما يقرب من مئتين و خمسين ألف يهودي ، وصل معظمهم قبل أكثر من نصف قرن من ألمانيا وهولندا وبريطانيا . كان هؤلاء من المتنورين الذين سرعان ما اندمجوا وتأقلموا بشكل نسبي مع المجتمع الجديد . وقد أفلح بعضهم بتحقيق مراكز اجتماعية متقدمة في مجال المصارف (جاكوب شيف وسولومون لوب وجوزيف زيليغمان وأوتو كان وأوغوست بلمونت) أو في مجمعات المخازن الكبرى (أيزيدور شتراوس) أو في السياسة (يهوذا بنيامين) وغيرهم . وقد فقد هؤلاء ، مع مرور الوقت ، بعضاً من إحساسهم بالاختلاف عن الآخرين الذي رافقهم لقرون طويلة . ومع ذلك ، وكعادة اليهود ، بقي شعورهم الديني والعنقي وتعاظفهم نحو إخوتهم اليهود في أنحاء العالم ملازماً لهم .

ولعل من الأمور الغريبة حقاً ، أن من أوائل وأبرز المعارضين لهجرة يهود حدود المستوطنة الروسية إلى الولايات المتحدة كانوا من اليهود الأقدم في الهجرة وبخاصة الألمان منهم . ففي مقالة بعنوان " الروس قادمون " ، يشرح أحد المؤرخين اليهود ⁶⁸ أسباب هذا الاعتراض على النحو التالي :

" كانت ردود أفعال اليهود الألمان حول المهاجرين القادمين من أوروبا الشرقية منقّرة . فقد كان هؤلاء قد رسخوا مواقعهم في أمريكا وتخوفوا من ضياع التقدم والقبول الذي أحرزوه في المجتمع الأمريكي وإمكانية إحياء ظاهرة العداء لليهود بسبب إخوتهم الروس المتخلفين عنهم في جميع النواحي الحضارية والمتفوقين في إطار الشتيتلات و الغيتوهات " . وقد عبّر عن ذلك حتى الحاخام الإصلاحى إسحق مائير وايز بالقول : " نحن أمريكيون وهم ليسوا كذلك . نحن يهود القرن التاسع عشر في بلد حرّ ، وهم لازالوا يقضمون عظام القرون السالفة " . وبالمقابل ، كان شعور مهاجري يهود روسيا مفعماً بالامتناع من تصرف إخوتهم الألمان . ويذكر بيان لإحدى الجمعيات الخيرية في عام 1894 (البيت

The International Jew, Henry Ford , Vol. 1, 1920 ⁶⁷
The Russians are Coming , Jerry Clinger ⁶⁸

الخيري والمأوى للعبرانيين المتحدين) 69 : " لقد أنشئ هذا البيت من فقراء اليهود الروس .. وإننا لا نريد انتقاد إخوتنا الألمان .. إن من واجبنا كيهود روس مساعدة مواطنينا وضمان عدم إهانتهم من إخوتنا المتغترسين الذين يرون اليهود الروس كمتسولين وكمشردين لا يصلحون لشيء .. ففي المؤسسات الخيرية العائدة لليهود الأرستوقراطيين الألمان ، هناك المكاتب الفخمة والأثاث المترف .. هناك يتم استجواب اليهودي الفقير كمجرم يقف أمام مسؤول روسي .. "

أما بالنسبة لعامة الأمريكيين - من غير اليهود - فكان الأمر مختلفاً في البداية . فمقالات التاييمز اللندنية وآلة الإعلام اليهودية واجتماعات منشون هاوس في لندن وتشيكيرينغ هول في نيويورك قد صوّرت لهم مدى الفظاعات والمجازر التي ارتكبت بحق اليهود الروس . ولا شك في أن الشعور بالتعاطف وضرورة مساعدة هؤلاء المساكين كان سائداً بينهم . وتشهد على ذلك مقالة في النيويورك تايمز بتاريخ 26 آذار \ مارس 1882 تحمل عنوان - بين اليهود الروس ، زيارة للاجئين في جزيرة وارد \ نيويورك - : " .. على كل أمريكي أن يشعر بالفخر لكون هذا البلد ملجأ للمضطهدين وبيت الأمل لكافة أعراق الأرض .. " . إلا أنه لم تمض أربعة أشهر على تلك المقالة العاطفية حتى بدأ بعض الأمريكيين يفهم تماماً ما يجري على الأرض . ففي تموز/ يوليو نشرت مقالة أخرى في نفس الصحيفة بعنوان - العبرانيون من روسيا ، الاستعجال البريطاني في إرسال اللاجئين إلى هذا البلد - : " .. إن الشعب الأمريكي مستعد لتحمل المسؤولية تجاه اللاجئين . ويبدو أن السيد جون بُلّ (وهي تسمية كاريكاتورية لبريطانيا على غرار أونكل سام الأمريكي !) قد جمع مبلغاً كبيراً من المال لزيادة عدد سكاننا ، إلا أنه غير معني بما سيحدث لهم بعد ذلك ... فمنذ مطلع هذا العام ، يأتي اليهود الروس بمعدل 2000 شخص في الشهر ، ويقال أن هناك ثلاثة ملايين يهودي في بولندا وروسيا في الانتظار . وإذا ما بقيت أمريكا كملجأ لاستقبال من يرسلهم السيد جون بُلّ ، فسيكون استقبالنا لهؤلاء الساميين بلا نهاية " .

وفي واقع الأمر ، بدا أن استقبال أمريكا " للساميين " الروس بلا نهاية كما تشير إلى ذلك إحصائيات الكتاب السنوي لليهود الأمريكيين 70 . يبيّن الجدول (1) تزايد أعدادهم ونسبتهم في الولايات المتحدة والناجم بشكل رئيسي عن موجات الهجرة من حدود المستوطنة الروسية .

<u>النسبة المئوية</u>	<u>عدد اليهود</u>	<u>العدد الإجمالي للسكان</u>	<u>العام</u>
0.52	229,087	43,661,968	1877
1.31	937,800	72,106,120	1897
2.00	1,776,885	88,787,058	1907
3.27	3,388,951	103,690,473	1917

الجدول (1) : تزايد أعداد اليهود في الولايات المتحدة ما بين الأعوام 1877 - 1917

وما أن وصل هؤلاء المهاجرين إلى شواطئ الولايات المتحدة حتى بدأوا بالتجمع في المدن الكبرى والرئيسية مثل نيويورك وبوسطن وشيكاغو وفيلادلفيا وتشكيل غيتوهات وأحياء شبه خاصة بهم . وقد نشرت النيويورك تايمز في 27 حزيران \ يوليو 1891 مقالاً تشدد فيه على ضرورة توزع المهاجرين الجدد في أنحاء الولايات المتحدة وتغلغلهم في نسيج المجتمع الأمريكي بدلاً من تخطيرهم في غيتوهات المدن الكبرى وبخاصة في نيويورك . ومع ذلك لم تجد مثل هذه النداءات نفعاً . فبعد عشر سنوات ، يصف أحد التقارير الرسمية ⁷¹ أوضاعهم الاجتماعية والمعيشية في مدينة نيويورك : " تكتظ المنطقة الشرقية من المدينة بالقادمين من اليهود الروس . ويتميز هؤلاء ليس فقط بالفقر والجهل ولكن بأرثوذكسيتهم واتباعهم لقوانين ديانتهم . ففي هذه المنطقة يمكنهم الحصول على الطعام المتفق مع شريعتهم ، وهنا الكُئس الأرثوذكسية والجيران والأصدقاء الذين يمكن زيارتهم أيام السبت ... إن (المهاجرين) الروس والبولنديين هم من الفقراء ويتمتعون بعبادات قذرة إلا أنهم ناشطون في العمل ويعمل الكثيرون منهم كباعة متجولين .. ويطوّق المنطقة الشرقية في نيويورك الأولاد اليهود الطامحين إلى استغلال الفرص المتاحة للعمل .. إلا أنهم يرفضون الأعمال اليدوية أو التي تتطلب أعمالاً ذهنية " .

بعد فترة تقارب العقد ، ومع تزايد خبرة الأمريكيين في التعامل مع هذه الشريحة الجديدة من المهاجرين والتعرف عن قرب على طبائعهم وأخلاقياتهم ، تحولت الدعوات الطوبائية لشقّ المحيط الأطلسي لتمكين يهود روسيا من الهجرة إلى دعوات لأغلاقه وردمه . وعلى سبيل المثال يذكر المفوض السابق لشؤون الهجرة في نيويورك جون ويبر في مقابلة له مع النيويورك تايمز في 10 أيارا مايو 1893 : " إن أولئك اليهود الذين حكم عليهم بالطرد من بولندا هم من أكثر شرائح المهاجرين غير المرغوب فيهم بالقدوم إلى شواطئنا ... فالشعوب الأوروبية لا تريد لهم بل وتقوم بمساعدة روسيا لدفعهم إلينا . فألمانيا لا تريدهم والنمسا تكرههم وفرنسا تحتقرهم .. " . وفي العام التالي تشكل في

جامعة هارفرد ما عرف باسم " التحالف للحدّ من الهجرة " بهدف تحذير الشعب الأمريكي من موجات المهاجرين غير المرحب بهم من غير المتعلمين الذين يغزون البلد ويهددون روح وثقافة المجتمع الأمريكي ، وعلى رأس هؤلاء القادمين من جنوب وشرق أوروبا .

لقد خلقت سياسة الباب المفتوح التي اتبعتها الولايات المتحدة في مسألة الهجرة عامة الكثير من المشاكل للشعب الأمريكي ، أهمّها :

- انخفاض أجور اليد العاملة بسبب قبول الوافدين الجدد بأجور أقلّ للحصول على العمل وهذا ما أثار حفيظة الطبقة العاملة الأمريكية واتحاد نقابات العمال ، إضافة إلى حالات الركود الاقتصادي التي شهدتها البلاد في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

- تبينّ للأمريكيين ، من الإحصاء الرسمي في عام 1890 ، أن نسبة المهاجرين القادمين من شرق وجنوب أوروبا تشكل 70% من مجموع المهاجرين ، و رأوا فيها اختلالاً للتوازن الاجتماعي والسياسي والثقافي على المدى القريب .

- تبينّ من الإحصائيات أن نسبة معتبرة من المهاجرين الجدد البالغين هم من الأميين الذين لا يحسنون القراءة والكتابة أو لا يمتلكون أي مهارات تؤهلهم للعمل بل وإن بعضهم مصاب بعاهات جسدية أو عقلية .

- قبل الهجرة إلى أمريكا ، كانت غالبية الشريحة العمالية اليهودية في روسيا قد انضمت إلى اتحاد العمال اليهود ، وهو تجمع سياسي ثوري متطرّف ينضوي بدوره في الحركة الشعبية الديمقراطية الروسية والتي كانت تسعى إلى الإطاحة بالنظام القيصري لآل رومانوف . وقد هاجرت أعداد معتبرة من هؤلاء العمال ، من ذوي الأفكار الفوضوية ، إلى الولايات المتحدة . وكان لهؤلاء تأثير سلبي على الوضع السياسي الداخلي وعلى مستوى الحرية للشعب الأمريكي .

أدت هذه السياسة إلى تزايد الإجماع الشعبي على ضرورة إعادة تنظيم الهجرة والحدّ بشكل خاص من مهاجري دول شرق وجنوب أوروبا . ففي عام 1906 ، على سبيل المثال ، صدر كتاب " غرباء أو أمريكيون ؟ " لمؤلفه هوارد غروز⁷² يقول فيه محذراً الشعب الأمريكي : " .. عليكم أن تتخللوا جيشاً ، مكوناً من عشرين ألف شخص في الأسبوع ، يزحف إلى بلد غير محمي . يتقدمهم أولئك المهاجرون ذوي الأشكال الغريبة والمثفّرة - وبشكل كبير من اليهود - من أقاصي الإمبراطورية الروسية وهنغاريا ورومانيا .. " . كما عبّر بعض السياسيين من أعضاء الكونغرس ، مثل السيناتور هنري كابوت لودج ، عن مخاوفه من التزايد الكبير لمهاجري إيطاليا وبولندا وهنغاريا وروسيا

و أوروبا الشرقية . وفي السنوات التالية ، بدأ التَخَوُّف من الدور الذي يلعبه المال والنفوذ اليهودي ليس في مسألة الهجرة فحسب بل وفي تغيير معالم المجتمع الأمريكي . كان السيناتور إليسون سميث 73 أكثر وضوحاً في تشخيصه للأمور : " أغلقوا الأبواب .. فلقد سمحنا أثناء الحرب العالمية الكبرى لقوى بالدخول عبر حدودنا والتي كادت أن تصهر القدر بدلاً من كوننا القدر الذي يُصهر فيه الآخرون ... لدينا في هذه الأيام رجال يستخدمون قوى هائلة لوضعنا تحت سيطرتهم وتحكمهم بفضل القوة التي يمتلكونها في مضاعفة ثرواتهم " . وأغلب الظن، أن هذا السيناتور كان يشير ضمناً لمقولة هرتزل ، عندما نهض ، تنهض معنا أيضاً قوة مالنا الرهيبة .

وبالفعل ، فقد أقرّ الكونغرس آنذاك ، وعلى مدى سنوات ، عدة قوانين تتدرّج في شدّتها وتحدّد أعداد ومواصفات المهاجرين الجدد . ففي قانون الهجرة لعام 1903 ، تم منع دخول الفوضويين أو الأشخاص الذين يشجعون على قلب حكومة الولايات المتحدة بالقوة أو العنف ، وأتبع في 1918 بقانون إبعاد الغرباء المهاجرين ممن انتسبوا إلى جماعات فوضوية بعد دخولهم البلاد . وفي عام 1921 ، أصدر الكونغرس ما يعرف بقانون الحصص حدد بموجبه دخول المهاجرين للدول بنسبة 3% (من أعداد المتواجدين منهم في الولايات المتحدة وفق إحصاء 1910) . وهكذا انخفضت أعداد المهاجرين من شرق وجنوب أوروبا إلى ربع ما كانت عليه . أما قانون الحصص الذي صدر في عام 1924 واستمر العمل به إلى أواسط الستينات من القرن الماضي فكان الأشد ، حيث خفّضت نسبة المهاجرين إلى 2% للمواطنين الأوروبيين (وفق إحصاء 1890) . ونتيجة ذلك تقلّصت أعداد المقبولين من دول أوروبا الشرقية وروسيا بشكل هائل . فعلى سبيل المثال ، تراجعت أعداد مهاجري يهود بولندا (المستقلة بعد الحرب) من 75000 في عام 1921 إلى 5000 في عام 1927 .

ورغم أن قانون الهجرة الجديد قد طال جميع الراغبين في الهجرة من غير اليهود ، إلا أن أعلى صراخ وأشدّ احتجاجات جاءت ، كما جرت العادة ، من اليهود . وبدأ الالتفاف على القانون الجديد والتهجّم عليه بإعطاء مبررات متعددة ، منها أنه موجّه بالأساس ضد اليهود ويستجيب لأنصار المعادين للسامية ، ومنها أن اليهود ليسوا مهاجرين بل مضطهدين يتعرضون للمذابح والتنكيل وأنهم من بين جميع المهاجرين لأرض لهم ولا وطن يحميهم وإلى غير ذلك من المبررات التي تستند الشفقة كعدم مراعاة قانون الهجرة لمّ شمل الأسر التي تخلفت عن معيّلها في مجاهل روسيا وبولندا وليتوانيا ...

وإذا كان لإغلاق أبواب الهجرة أسبابه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، فلا بدّ من تفسير المبررات التي دعت المشرّعين الأمريكيين إلى إصدار قوانين الغرباء والتحرّيز على العصيان ⁷⁴ والترحيل لمن يشجع على قلب حكومة الولايات المتحدة بالعنف والقوة في مطلع القرن العشرين . فكما تمت الإشارة إليه سابقاً ، فإن الحركات الثورية والفلسفة الفوضوية الداعية إلى تقويض النظم السياسية بالعنف كانت متوافرة بكل ثقلها في حدود المستوطنة الروسية . وقد ساعدت أبواب الهجرة المفتوحة الى أمريكا على دخول أعضاء هذه الحركات وبخاصة إلى الطرف الشرقي الأسفل في مدينة نيويورك ، حيث يتجمع غالبية اليهود المهاجرين . كانت مسلسلات الاغتيالات التي قام بها هؤلاء الفوضويون ، بعد اغتيالهم القيصر الاسكندر الثاني ، قد وصلت إلى أسماع المشرّعين الأمريكيين . فبدءاً من عام 1901 ، قام المتطرفون اليهود باغتيال عدد من المسؤولين الروس (وزير التعليم بوغوليوف ووزير الخارجية سيبياجين وسازونوف ورئيس الوزراء ستوليبين وعدد آخر من الضباط وحكام الأقاليم) . وكان آخر المطاف ، مذبحه آل رومانوف القيصرية على يد اليهودي البولشفي ياكوف يوروفسكي . كما سمع المشرّعون بالمجموعات الثورية في بولندا ونشاطاتها الإرهابية كمهاجمة مراكز الشرطة والاعتداء على حياة أصحاب المصانع ونهب المصارف وغير ذلك .

وبالفعل ، فما أن وصل هؤلاء الثوريون البروليتاريون إلى أمريكا في نهاية القرن التاسع عشر حتى بدأوا بتأسيس جمعيات عمالية في نيويورك وشيكاغو وغيرها استخدمت كمراكز للدعاية المعادية للقيصرية الروسية ومن ثمّ للنظام الأمريكي الرأسمالي و الدعوة إلى الثورة و الفوضوية الاجتماعية . ويتفاخر الزعيم العمالي اليهودي أبراهام كاهان ⁷⁵ في تصريح له في النيويورك تايمز : " بأن الحركات الثورية ليست سرية في نيويورك . فالأموال تجمع وترسل إلى العملاء السريين في روسيا بهدف تحريرها .. فالديمقراطيون الاشتراكيون والحر والفوضويون والاتحاد العمالي وحتى اليهود المحافظون متّحدون بالرغبة المشتركة في رخاء الدولة التي ولدوا فيها " .

ولم يكن هدف هؤلاء تحرير روسيا القيصرية فحسب بل امتد لتغيير النظام السياسي والاقتصادي الأمريكي برمته . وعلى ما يبدو ، فإن معظم يهود حدود المستوطنة الذين قدموا إلى الولايات المتحدة بحثاً عن الثروة والذهب انتهى بهم المطاف إلى العمل اليدوي الشاق في المعامل بأجور زهيدة وساعات عمل طويلة ، الأمر الذي لم يألّفوه من قبل . وهكذا بدأ هؤلاء بشكل خاص في قيادة الإضرابات العمالية في العديد من المدن الأمريكية وشاركهم إخوتهم الفوضويون في أعمال القتل والاغتيال وتفجير القنابل . وهنا أيضاً نستذكر مقولة هرتزل الشهيرة ثانياً : عندما يسقط اليهود يصبحون بروليتاريين ثوريين ..

Alien- , Sedition- , Deportation Acts ⁷⁴
Abraham Cahan , NYT , 29 January 1905 ⁷⁵

ولا بأس في هذا المجال أن يطلع القارئ على المحطات التاريخية الرئيسية التي أثارت الرأي العام الأمريكي وأدت إلى الضغط على الكونغرس والإدارات الأمريكية المتلاحقة بشأن الهجرة والتي يمكن اختصارها بالأحداث التالية :

- في 4 أيار \ مايو 1886 وأثناء مظاهرة عمالية في ساحة هايماركيت بشيكاغو ، قام أحد الفوضويين بإلقاء قنبلة أدت إلى مقتل سبعة من أفراد الشرطة وأربعة عمال وجرح الكثيرين نتيجة تبادل إطلاق الرصاص بين مجموعة الفوضويين والشرطة . وقد أدين في الاعتداء ثمانية أشخاص من الفوضويين بتهمة القتل . تبين أن سبعة منهم من اليهود ⁷⁶ وتم إعدام أربعة بعد إدانتهم من المحكمة وانتحار الخامس . أما اليهودي رودولف شناوبلت ، والمعتقد أنه الذي رمى القنبلة ، فقد تمكن من الهرب خارج أمريكا .

- تصدر قائمة الفوضويين اليهود في أواخر القرن التاسع عشر، الملكان غير المتوجان إيما غولدمان و ألكسندر بيركمان (أوفساي أوسيوفيتش بيرگان) الليتوانيان ⁷⁷ ، إضافة إلى العشرات من رفاقهما . وقد عرف هؤلاء جميعاً بتحريض العمال على الإضرابات والثورة والعنف المسلح لقلب نظام الحكم القائم في أمريكا من خلال الكتابات أو المنشورات التي كانوا يوزعونها . وفي عام 1892 وأثناء نزاع عمالي حول الأجور مع إدارة مصنع للحديد والصلب في مدينة بيتسبورغ ، قام بيركمان ، بمساعدة مالية من صديقه غولدمان ، بإطلاق الرصاص على صاحب المصنع هنري كلاي فريك . وقد حكم عليه بالسجن لمدة 22 عاماً .

- في عام 1901 ، أقدم المتطرف اليهودي ، البولندي الأصل ، ليون تشولو غوتش على اغتيال الرئيس الأمريكي وليام مك كينلي في مدينة بوفالو بولاية نيويورك . وقد اعترف قبل إعدامه بأنه من أنصار الفوضوية إيما غولدمان . وكالعادة ، حاول الإعلام اليهودي التركيز على جنسية البولندية وغض الطرف عن ديانتها اليهودية . مما دعى الجالية البولندية غير اليهودية إلى التنبيه لهذه الخدعة وإصدار بيان شديد اللهجة : " إذا ما عمل أسلاف هذا الوغد على إثبات نسبه البولندي ، فإننا نؤكد (للشعب الأمريكي) أنه أحد الذين كانوا مثار إعجاب الفوضويين الروس واليهود وبالتالي فليس من المجدي تصنيفه كبولندي " .

- في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وتحديداً بعد انتصار الثورة البولشفية في روسيا في عام 1917 ، شهدت الولايات المتحدة سلسلة من الاضطرابات والهجمات بالقنابل على مراكز الشرطة والمحاكم وبيوت المسؤولين الحكوميين . وكان أن دخلت الولايات المتحدة فيما يعرف بالحقبة الأولى لـ " الفرع

⁷⁶ أوغوست سبايز ، أدولف فيشر ، جورج إنجل ، لويس لينج ، ميشائيل شغاب ، صامويل فيلدن ، أوسكار نيبه
⁷⁷ Emma Goldman , Alexander Berkman

الأحمر " 78 . ففي نيسان \ أبريل 1919 ، تمّ اكتشاف ستة وثلاثين طرداً بريدياً مفخخاً معنوناً إلى عدد من أعضاء الكونغرس والقضاة وحكام الولايات ومسؤولي الهجرة وغيرهم ، وتلا ذلك تفجيرات في ثماني مدن في حيزران من العام نفسه . وقد قادت التحقيقات إلى توجيه الاتهامات إلى الأحزاب الشيوعية والمنظمات النقابية العمالية المتطرفة والفوضويين اليساريين . ولما كانت هذه الأحزاب والمنظمات مكونة أساساً من المهاجرين الجدد ، فقد اتجهت الأنظار إليها كقوى تعمل على تقويض النظام في أمريكا . وفي نهاية العام ، تم الكشف عن مستودع لصناعة المتفجرات والقنابل في المقر الرئيسي لاتحاد العمال الروس في نيويورك 79 . ولم تمض أسابيع حتى قامت سلطات الهجرة بترحيل 249 روسياً إلى الإتحاد السوفياتي وعلى رأسهم المتطرفين اليهوديين إيما غولدمان وألكسندربيركمان . ويذكر المؤرخ المعاصر بيتر نوفيك 80 إن الغالبية العظمى من المحرضين الغرباء الذين تم ترحيلهم في حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى كانوا من اليهود .

وإذا كان الشعب الأمريكي قد عانى من البروليتارية اليهودية أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها ، فقد كانت معاناته في الحرب العالمية الثانية وحقبة الحرب الباردة مع شريحة أخرى برجوازية ومن أصحاب الياقات البيضاء . فالذين تعاهدوا ، كما رأينا ، أن يخفق العلم الأمريكي فوق البيت الحقيقي للشعب اليهودي تحوّل ولاؤهم بسرعة إلى العلم السوفياتي . ففي عام 1947، تأكدت لجنة النشاطات المعادية لأمريكا ، التابعة للكونغرس ، أن بعض الكتّاب والممثلين والمخرجين في صناعة السينما في هوليوود يروّجون للشيوعية . ونتيجة للشهادات التي استمعت إليها اللجنة تم وضع قائمة سوداء بحق 10 من أقطاب المروّجين وأدى عدم تعاون هؤلاء مع المحكمة العليا إلى الحكم عليهم بالسجن لمدة عام . واللافت للنظر أن هؤلاء جميعاً من كتّاب النصوص السينمائية اليهود ، وعرفوا باسم " العشرة الهوليوديين " 81 . كما تم منع العشرات غيرهم من العمل في صناعة السينما .

قد يهون الترويج للشيوعية وللاتحاد السوفياتي أمام الخيانة العظمى . فقد فُجع الشعب الأمريكي بمجموعة من أحفاد المهاجرين اليهود الروس بالتجسس ونقل أسرار تصاميم القنبلة الذرية إلى الإتحاد السوفياتي . وكان أبطال هذه المجموعة يوليوس روزنبرغ وزوجته إيثيل غرينغلاس (روزنبرغ) اللذين أعدموا في عام 1953 ، إضافة إلى ديفيد غرينغلاس وهاري غولد ومورتون سوبل الذين حكم عليهم بالسجن وجاكوب غولوس وغيره 82 .

Red Scare 78

NY Times , 26 Nov.1919 79

The Holocaust in American Life , Peter Novick , 1999 80

The Hollywood Ten 81

The Atom Spy Case ، وتعرف شعبياً بقضية روزنبرغ (The Rosenberg's Case) 82

وإذا كانت مجمل الأحداث التي رُوِّع فيها يهود " حدود المُستوطنة " الشعب الأمريكي منذ أن وصلوا إلى شواطئ الولايات المتحدة ، و أدّت إلى إصدار قوانين تحدّ من هجرتهم قدر المستطاع ، كانت هناك بوادر لتشكل جماعات أخرى تسعى إلى إبعادهم عن شواطئها إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ولكن لأسباب أخرى . ففي أيامنا المعاصرة هذه ، يكثر الحديث عن التحالف المقدس الذي يجمع مابين المحافظين الجدد والمسيحيين المتصهينيين ، من أمثال بات روبرتسون و جري فالويل وهال ليندساي ، ومواقفهم المعلنة من الشرق الأوسط والداعمة لإسرائيل وهجرة يهود الاتحاد السوفياتي واحتلال القدس . وفي الواقع ، فإن هذا التحالف ليس بجديد بل هو امتداد تاريخي يعود إلى أكثر من قرن من الزمن . ففي أواخر القرن التاسع عشر ، وحتى قبل صدور كتاب هرتزل " دولة اليهود " ، كان هناك تنسيق بين بعض جماعات المسيحية الأصولية في الولايات المتحدة وبين المتشددين اليهود لدفع يهود حدود المستوطنة الروسية للهجرة إلى فلسطين لأسباب دينية ودنيوية في آن واحد .

" ماذا يتوجب فعله بشأن يهود روسيا ؟ " ؛ كانت هذه هي الفقرة الأولى والعنوان البارز لمذكرة بعث بها في مطلع عام 1891 الداعية الإنجيلي وليم يوجين بلاكستون إلى رئيس الولايات المتحدة ووزير خارجيته لدعم إعادة فلسطين لليهود : " هناك اعتقاد في روسيا بأن اليهود يشكلون عبئاً على مواردها وضرراً لرفاهية فلاحها وبالتالي فروسيا مصرّة على دفعهم للهجرة . أين يذهب هؤلاء اليهود المساكين ؟ فأوروبا مزدحمة ولا مكان فيها لمزيد من الفلاحين . هل يتوجب على اليهود القدوم إلى أمريكا ؟ سيكون هذا مكلفاً ويحتاج إلى سنوات .. إننا نلتمس من فخامة الرئيس بنيامين هاريسون ، رئيس الولايات المتحدة ومن سعادة جيمس بلين ، وزير الخارجية استخدام نفوذهما لدى كل من ملكة بريطانيا وإمبراطور ألمانيا وإمبراطور النمسا وهنغاريا وسُلطان تركيا وملك إيطاليا وملكة إسبانيا وكل من حكومات فرنسا وبلجيكا و .. لعقد مؤتمر دولي ، في أقرب فرصة ، للنظر في أوضاع بني إسرائيل ومطالبهم بفلسطين باعتبارها وطنهم القديم ؛ والسعي للتخفيف من معاناتهم بكل الطرق العادلة والسليمة .. إن جميع الدول الأوروبية تتعاطف مع الوضع المحزن لليهود في روسيا ، وفي الوقت نفسه لا ترغب في أن يتقاطر هؤلاء إلى بلادهم . وبالتالي ستوافق هذه الدول بسعادة على إعادة فلسطين لليهود كبديل طبيعي . إن مثل هذا الشعور يسود إلى حد كبير في بريطانيا . إن الوضع الاقتصادي المتردّي للحكومة التركية .. والتعويضات غير المُسدّدة التي تطالب روسيا بها تركيا ... تشكل عوامل مساعدة وحاسمة لتحقيق هذا الهدف ... وذلك عن طريق تغطية جزء من دين تركيا العام من قبل المصرفيين اليهود الأغنياء .. 83 . إننا نأمل من فخامتكم والسيد وزير الخارجية أن تولوا هذا الموضوع الهام اهتمامكم عن طريق عقد مؤتمر دولي يضمن لهذه الملايين من الإسرائيليين التائبين وطناً " .

⁸³ يبدو أن هرتزل مغرم باقتباس أفكار من سبقوه . فيعد 5 سنوات من مذكرة بلاكستون ، أشار في كتابه " دولة اليهود " ، 1896 : " وإذا ما رغب جلالة السلطان (العثماني) في إعطائنا فلسطين ، فيإمكاننا بالمقابل الشروع بتنظيم كافة الأمور المالية لتركيا "

لقد ذُيل هذا الطلب إلى رئيس الولايات المتحدة ب 413 توقيعاً لشخصيات سياسية ودينية واقتصادية من أعضاء الكونغرس وعمدات الولايات وكبار المطارنة والحاخامات . ومن المثير للانتباه أن ثلاثة وتسعين ناشراً ورئيس تحرير لكبريات الصحف والمجلات الأمريكية قد وقعوا على عريضة الاستعطاف 84 .

كان الداعية الإنجيلي بلاكستون يعتقد أن الكتاب المقدس يحتوي على نبوءات تحتم عودة يهود الشتات إلى الأرض التي طردهم منها أسلافه الرومان ، لا بل إن أرض فلسطين هي حق إلهي مكتسب للشعب اليهودي . إن عودة اليهود وإنشاء دولة إسرائيل ستسرّع في المجيء الثاني للمسيح . وإلى جانب ذلك ، كان بلاكستون يدعو اليهود للتحويل إلى المسيحية وقبول النبي عيسى على أنه المسيح . هذا باختصار هو محور عقيدة المسيحيين المتصهينيين .

وإذا كانت الصهيونية الناشئة آنذاك قد وجدت ضالتها في الدعم الذي يقدمه لها المسيحيون المتصهينون في مسألة العودة إلى أرض إسرائيل ، كانت الدعوة لليهود إلى اعتناق المسيحية ساذجة ومحل سخرية وهزء . ففي حين أسبغ على بلاكستون لقب " أبو الصهيونية " في المؤتمر الصهيوني في فيلادلفيا عام 1918 ، كتب فولف شور : " فلندع المسيحيين يقومون بكل مايسطيعون لمساعدتنا على الاستيطان في فلسطين . أما في مايتعلق بعقيدتنا ، فلنتركه إلى حين عودة إيلياهو (أي النبي إلياس) ، وبعدها سنرى إذا ما كانت أحلامهم ستتحقق أم لا .. فعندما يكون هناك اعتراف بالله ، فلا مكان للاعتقاد بالمسيح .. " 85 .

وفي مقابل طوبائية المسيحيين المتصهينيين ، كانت هناك أصوات واقعية تعارض تدخل الولايات المتحدة في هذا الأمر ، وتجد في مزج بلاكستون بين معتقداته الدينية والعاطفية والتعويضات المالية لتركيّا خطة دينية وسياسية في آن واحد : " إن اقتراح فصل اليهود ووضعهم في فلسطين يوازى الخطة القديمة في إعادة زنوج (أمريكا) إلى إفريقيا .. فهو تطوير لعداء السامية أكثر من كونه عملاً إنسانياً خالصاً .. واليهود (في أمريكا) " 86 .

الحرب العالمية الأولى ومؤتمر السلام

William Blackstone and American Christian Zionism , Thomas Ice, 2003 84

Wolf Schur, HaPisga 85

The NY Sun , 6 March,1891 , Editorial 86

يمكن القول بأن العقود الأولى للقرن العشرين كانت الفترة الحاسمة والأخطر في تاريخ البشرية عامة والعرب خاصة . ففي هذه الحقبة بلغ النشاط اليهودي والصهيوني أوجه في تدويل المسألة اليهودية بل وفي خداع العالم أجمع . وفي هذه الحقبة كانت فلسفة بينسكرو وأطروحة هرتزل توضع موضع التنفيذ . لقد شهد العالم في هذه الفترة حدثين كبيرين ، كان لرأس المال اليهودي والبروليتاريا اليهودية اليد الطولى فيهما ؛ الحرب العالمية الأولى (1914-1918) والثورة البلشفية في روسيا (1917) . فقد كان من تبعات الحرب ، كما هو معروف ، تمزق إمبراطوريات وتشكل دول جديدة وعقد معاهدات واتفاقات دولية سرية وعلمية توجت بمؤتمر السلام في باريس عام 1919 وإنشاء عصبة الأمم . كان من أولى الغنائم التي كسبتها البروليتاريا اليهودية أثناء الحرب مشاركتهم الفعالة في الانتقام المريع من النظام القيصري في روسيا . أما رأس المال اليهودي ، ممثلاً في اللورد روتشيلد ، فقد غنم وعد بلفور في 2 تشرين الثاني \ نوفمبر 1917 . أليس مستغرباً أن ينجم عن قيام الثورة البلشفية صراعات دولية وحرب باردة بين معسكر البروليتاريا والمعسكر الرأسمالي ، في الوقت الذي كانت فيه البروليتاريا اليهودية ورأسمالها يعملان معاً يداً بيد ؟

ومن البديهي القول إن وعد بلفور كان سيبقى وعداً إذا لم يقترن بمعاهدات ومواثيق دولية ملزمة يكون أيضاً لليهود يد في صياغة نصوصها وفقراتها وبنودها . وأي موضع أفضل لصياغة مثل هذه المواثيق من عصبة الأمم ، وليدة مؤتمر باريس ، والتي " تنبأ " هرتزل بقيامها ، قبل ذلك بأكثر من عقدين ، كمجلس للأمم العالم المتمدن ؟

لفهم البرنامج التنفيذي الذي وضعه رأس المال اليهودي في الغرب وحليفه البروليتاري الثوري في الشرق الأوروبي ، دعونا نقرأ سوية ما جاء في مذكرات ليتمان روزنتال تحت عنوان " عندما يتكلم الأنبياء " 87 : " بُعيد المؤتمر الصهيوني السادس في بازل عام 1903 ، ألقى الزعيم الصهيوني ماكس نورداو 88 خطبة جاء فيها .. إن إنكلترا حالياً هي القوة العظمى .. وليس هناك أكثر فائدة للقضية الصهيونية من علاقات سياسية ودية مع مثل هذه القوة . و الفائدة الأكبر منها هي أن المصالح الانكليزية تتركز على (بلاد) المشرق . وعاجلاً أم آجلاً ، ستحل مسألة المشرق وهذا يعني بالطبع مسألة فلسطين . وسيكون لبريطانيا الصوت الحاسم في الحل النهائي . إن هرتزل يعرف أننا نقف على أعتاب اضطراب هائل على مستوى العالم أجمع . بعد هذا الاضطراب ستتم الدعوة إلى شكل من أشكال المؤتمر العالمي ، وستتابع بريطانيا العظيمة والحرّة والقوية العمل الذي بدأته بعرضها السخي

87 When Prophets speak by Litman Rosenthal , the American Jewish News , 1919

88 Max Nordau

لنا ... سأشرح لكم الآن درجات السلم التي تقودنا درجة درجة إلى الأعلى ⁸⁹ . لقد بدأنا مع هرتزل ثم المؤتمر الصهيوني الأول ثم العرض البريطاني (للاستيطان) في أوغندا فالحرب العالمية القادمة مستقبلاً ومن ثم مؤتمر السلام والذي ، بمساعدة بريطانية ، ستنشأ فيه فلسطين يهودية وحررة " . وفي موضع آخر (من مذكرات روزنتال) يذكر أن ماكس نورداو كرّر ذلك بأسلوب آخر : " .. وبعد المعارك ، سيعقد ، عاجلاً أو آجلاً ، مؤتمر للسلام تشارك فيه تلك القوى التي خاضت الحرب .. وسنجلس (نحن اليهود) في ذلك المؤتمر المستقبلي متمتعين بحقوق متساوية مع القوى الأخرى " . والسؤال البديهي ، هل كان هرتزل وخليفته نورداو يتكلمان بلغة الأنبياء ؟ وهل كان بإمكانهما ، قبل عقد من الزمن ، التنبؤ بالحرب العالمية ومؤتمر السلام ؟ المنطق السليم يقول بأن زمن النبوءات قد انتهى منذ قرون . والمنطق السليم يوحي بأن التخطيط المستقبلي والعمل السري ، خلف الأبواب المغلقة ، بين البروليتاريا والرأسمالية اليهودية يمكن أن يؤدي إلى ما آلت إليه الأمور من حرب ومؤتمر سلام بعد عقد من الزمن .

في مؤتمر باريس للسلام كان تواجد المنظمات اليهودية العالمية والصهيونية مكثفاً و تركزت جهودها على محورين اثنين :

- الأول تدويل وعد بلفور وإعطائه الصفة الأممية
 - والثاني الحصول على مكاسب قانونية ومدنية لليهود في الدول المستقلة والناشئة أو الموسّعة وبخاصة بولندا ، موطن أكبر أقلية يهودية في أوروبا .
- ففي 3 شباط \ فبراير 1919 تقدمت هذه المنظمات إلى المؤتمر بمسودة قرار ، تتضمن نقاطاً مثيرة حول وعد بلفور و فلسطين ، كان من أبرز عناوينه :

الوطن القومي

بسبب الظروف المعيشية البائسة لملايين اليهود في بعض دول العالم ، وفي أوروبا الشرقية بالأخص ، فهؤلاء بحاجة إلى مخرج سريع ... والمخرج هو الاعتراف بحق اليهود في فلسطين كوطن قومي لهم ، وأن يعهد إلى عصبة الأمم وضع يدها على فلسطين تحت الانتداب البريطاني . إن إنشاء هذا الوطن ستضمنه جهود يهود العالم لتأمين مبالغ هائلة من الأموال اللازمة ، إذ تحتاج الأرض في فلسطين إلى الإستصلاح لأن معظمها ترك مهجوراً بلا رعاية ؛ ولهذا فهناك ضرورة لوجود حكومة مستقرة ومتحررة ، ومزيد من السكان المتحمسين " والأذكاء " والمخلصين للبلد والمدعومين بمصادر تمويلية هائلة ؛ وهذا ما لا يمكن تأمينه إلا عن طريق اليهود .

⁸⁹ من سخرية الأقدار ، أن يعيد التاريخ نفسه بعد 70 عاماً لسياسة درجات السلم ، التي ابتدعها هرتزل وماكس نورداو لابتلاع فلسطين ، هذه المرة على يد اليهودي هاينتس ألفرد (والمسمى لاحقاً هنري كيسنجر) على شكل دبلوماسية " الدرجة درجة " التي مزقت التضامن العربي في أعقاب حرب رمضان وإلى يومنا هذا ؟

الحدود المقترحة

بمأن مساحة فلسطين لا تستوعب سوى جزء محدود من يهود العالم ، فعلى الجزء الأكبر من الأربعة عشر مليون يهودي ، المشتتين في أرجاء العالم ، البقاء في مواطنهم الحالية على أن يكونوا في رعاية مؤتمر السلام من حيث ضمان عدم تعرضهم للاضطهاد وحصولهم على حقوق مساوية للآخرين . إن الحدود المقترحة في مسودة القرار هي ضرورية لإرساء القواعد الاقتصادية للدولة ، والتي يجب أن يكون لها منافذ طبيعية على البحار والتحكم بالأنهار ومنابعها . وقد رسمنا هذه الحدود وفق الحاجات الاقتصادية والتقاليد التاريخية لهذا البلد .

المياه

تعتمد الحياة الاقتصادية في فلسطين ، كغيرها من الدول شبه القاحلة ، على مصادر الماء المتاحة ، وبالتالي فمن بالغ الأهمية ليس فقط السيطرة على جميع مصادر المياه المتاحة في البلد بل أيضاً التحكم والحفاظ على المنابع . إن (جبل) الحرمون هو الأب الحقيقي للمياه في فلسطين .. و يجب أن يكون بشكل كامل خاضعاً لسيطرة أولئك الراغبين بشكل كبير في إعادة الاستفادة منه إلى الحد الأقصى و بالشكل المناسب ... لهذا ، يجب إيجاد تسوية دولية للأنهار لحماية الأشخاص الذين يسكنون جنوب نهر الليطاني .. لخدمة لبنان إضافة لفلسطين . إن الأراضي الخصبة الواقعة شرق (نهر) الأردن كانت مرتبطة منذ الزمن التوراتي مع الأراضي غربي النهر، وهي قليلة السكان حالياً .. ويمكن الآن أن تخدم الاستيطان بشكل رائع وعلى نطاق واسع .. وهناك حاجة لفلسطين و(للبلدان) العربية لاستخدام الخط الحديدي الحجازي ... كما أن التطور الزراعي وغيره يجعل من الضروري وجود منفذ حر لفلسطين على البحر الأحمر .

القوانين

يعتبر يوم السبت والأعياد اليهودية من أيام العطل الرسمية . ومن الواضح أنه لن تتخذ أية إجراءات من شأنها الإجحاف بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية المتواجدة حالياً في فلسطين . وتختتم المنظمات اليهودية مسودة القرار بالمقطع 4912 من - سفر الخروج - والذي يلمح إلى أن القوانين اليهودية هي التي ستطبق على الجميع في الوطن القومي المقترح : " فتسود هذه الشريعة (أي القوانين) على الأرض والداخل (أي الغريب) المقيم بينكم "

قدّم مسودة القرار إلى مؤتمر باريس المصرفي البريطاني - اليهودي والتر روتشيلد وعن المنظمة الصهيونية (العالمية) حاييم فايسمان وناحوم سوكولوف ، إضافة إلى ممثلين عن المنظمات الصهيونية في أمريكا وروسيا ويهود فلسطين . كان آرثر بلفور حاضراً في مؤتمر السلام ، مع وفد صاحبة الجلالة ، كشاهد زور على تحقيق وعده .

القراءة المتمعنة لنصّ ومفردات مسودة القرار الأنف الذكر تبين بوضوح النوايا الحقيقية والأهداف المستقبلية ليهودالعالم ، والتي يمكن إدراجها وفق النقاط التالية :

- إن الوطن القومي المطلوب هو بالأساس ليهود أوروبا الشرقية ، أو بتعبير أصح ليهود حدود المستوطنة الروسية ، الذين يعانون من ظروف معيشية بائسة في ظل كثافة سكانية هائلة . أما يهود أوروبا الغربية وأمريكا فعليهم البقاء في الشتات باعتبارهم المصدر الهائل للتمويل . ولعل وضع اسم

المصرفي البريطاني روتشيلد على رأس قائمة الموقعين ليس إلا ضماناً مالية للدول للمشاركة في مؤتمر السلام ، والخارجين تواء من حرب طاحنة استنفذت مواردهم ، بأن هذا الوطن الجديد لن يكون عبئاً اقتصادياً عليهم . لقد أثبت التاريخ الأقرب أن ذلك لم يكن سوى خدعة كبرى سيسدد فواتيرها دافع الضرائب المسيحي الغربي إلى يومنا هذا .

- وضعت المقترحات حدوداً شبه تفصيلية للوطن القومي مركزة على الحدود الشمالية والغربية . فهي تبدأ شمالاً من البحر الأبيض المتوسط في الضواحي الجنوبية لمدينة صيدا باتجاه الشرق إلى وادي التيم ثم جنوباً مروراً بين سفحي جبال الحرمون ثم غرب بيت جن فإلى الجانب الغربي للخط الحديدي الحجازي (بحاذاة عمان) وصولاً إلى خليج العقبة . أما الحدود الجنوبية فسيتم التفاهم عليها مع الحكومة المصرية . وفي الواقع فإن الحدود المقترحة رسمت لتلبي الحاجات الاقتصادية بشكل أكبر من تلبيتها " للنفاليد اليهودية " . فالوعد الإلهي لبني إسرائيل في سفر العدد 34 \ 1 - 12 يتضمن حدوداً شمالية تقارب مدينة حماة والبادية السورية (أرض كنعان) وحدوداً شرقية هي البحر الكبير (الميت) . ويبدو أن التراجع " المؤقت " عن الحدود الشمالية التاريخية بالامتداد شرقاً إلى الخط الحديدي الحجازي يؤمن السيطرة الكاملة على نهر الأردن من جهة ويتفادى أي تضارب سياسي لمناطق النفوذ الفرنسية في سوريا ولبنان وفق معاهدة سايكس- بيكو لعام 1916 . وبشكل عام ، فإن الشرح المقدم في القرار المقترح حول المياه وضرورة الهيمنة على مصادرها الرئيسية واضح لا يحتاج إلى أي تعليق . فبموجب هذه الحدود يسيطر اليهود بالكامل على البحر الميت والحولة وطبريا ونهر الأردن وجزء من نهر الليطاني ومعظم الأنهار والينابيع التي ترافدها .

- يتفادى نص المسودة ذكر كلمة " دولة إسرائيل " أو " أرض إسرائيل " وهذا ما ينسجم مبدئياً مع وعد بلفور في رسالته إلى والتر روتشيلد الذي لحظ " إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين " . وبالتالي ، فهذا يجنب الرجلين الحاضرين في مؤتمر السلام إحراجاً سياسياً . إلا أن مضمون إنشاء كيان سياسي ، بكل ما في الكلمة من معنى ، يفهم ضمناً عند طلب اعتبار أيام السبت والأعياد اليهودية هي الأعياد الرسمية لفلسطين ، كما يفهم من مضمون الإشارة إلى مقطع سفر الخروج المتعلق بتطبيق القوانين اليهودية على الأرض وعلى الدخلاء المقيمين في فلسطين . وقد أفصح وايزمان حقيقة نواياه لاحقاً في عام 1947 : " .. هذا صحيح ، فنحن لم نرغب بالحديث عن دولة في ذلك الوقت بل تحدثنا عن وطن قومي . وسواء أكانت فلسطين وطناً قومياً أو دولة فالأمر واحد . فنحن نعتقد أنه في الدولة اليهودية سيعيش جميع الناس في صداقة وحرية " .

- لا يخلو النص من عنصرية وعنجهية واضحة ، وخاصة إذا ما استعدنا مقولة هرتزل من أن اليهود سيشكلون قاعدة للتمدن أمام البربرية . إذ تؤكد المسودة أن استصلاح الأرض لا يتحقق إلا بمزيد من اليهود " الأذكىاء " في المنطقة .

- هناك تركيز لغوي متعمد في مسودة المنظمات اليهودية على تسمية السكان الفلسطينيين بالجماعات غير- اليهودية المتواجدة حالياً في فلسطين ، باعتبارهم وفق المنظور التوراتي " دخلاء مقيمين بين اليهود " . هذه التسمية سنجدتها أيضاً في نص بلفور " .. لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الجماعات غير- اليهودية المتواجدة الآن في فلسطين " ؛ كما سنجدتها لاحقاً في بنود المعاهدات الدولية والقرارات الخاصة بفلسطين⁹⁰ . ويبدو أنه كان على العالم أن ينتظر أكثر من ثمانين عاماً ليكتشف سبب هذا التلاعب اللفظي . ففي صحيفة الجروزالم بوست الصادرة بتاريخ 12 كانون الثاني \ يناير 1999 ، نشر الخبر الآتي : " ليوبولد أمري⁹¹ الذي كتب نصّ وعد بلفور كان يهودياً في السر . هذا ما أعلنه أستاذ التاريخ المعاصر ويليام روبينشتاين من جامعة ويلز " . وفي الواقع ، فإن ليوبولد أمري هذا لم يكن سوى ضابط مخابرات ساهم في تكوين الفيلق اليهودي التابع للجيش البريطاني وعمل مساعداً لوزير الخارجية البريطاني لويد جورج . ويبدو أيضاً أن أطرافاً يهودية أمريكية قد شاركت أيضاً في التلاعب النصّي لوعد بلفور . ففي مقالة بعنوان " المستعمرات اليهودية شرعية وفق القانون الدولي " يقول الكاتب الإسرائيلي مداد من مركز بيجين⁹² : " .. يشير نص وعد بلفور ، الذي تم إعداده بالتنسيق مع الولايات المتحدة ، .. إلى وطن قومي لليهود و جماعات غير- يهودية في فلسطين . هذا التمييز لم يأت مصادفة ، فالحقوق القومية والتاريخية للشعب اليهودي فقط في فلسطين معترف بها بوضوح في سياق النص . وبالعكس لا يذكر بأن الأرض تخص العرب بل تم التغاضي عنه بشكل متعمد . إن ما تضمنه الوعد والانتداب كان عبارات ضبابية تتعلق بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير – اليهودية ، من دون الإشارة إلى العرب إطلاقاً " . وفي الحقيقة ، فإن التنسيق السري البريطاني الأمريكي لنص وعد بلفور قد تم في تلك الفترة على يد اليهودي – الأمريكي لويس برنداي رئيس اللجنة التنفيذية المؤقتة للشؤون الصهيونية وعضو المحكمة العليا الأمريكية .

⁹⁰ ولعل من سخرية الأقدار أيضاً أن تلاعباً لغوياً مشابهاً قد تكرر مرة أخرى في قرار مجلس الأمن الشهير 242 لعام 1967 والذي تضمن انسحاب " القوات المسلحة الإسرائيلية " (وليس دولة إسرائيل !) من " أراضٍ " (وليس الأراضي !) احتلت في النزاع الذي جرى مؤخراً ، والتأكيد على ضرورة الوصول إلى حل عادل (وليس حق العودة !) للاجئين .

⁹¹ Leopold Ameri

⁹² Yisrael Medad , Educational Programming , Begin Centre

وفي هذا السياق أيضاً ، يمكن أيضاً للمتابع فهم سبب إعداد كتيّب للوفد البريطاني المفاوض في مؤتمر باريس للسلام كدليل استرشادي حول فلسطين يذكر فيه بأن أهالي المنطقة الذين يعيشون غرب (نهر) الأردن ليسوا عرباً ، بل يتكلمون فقط العربية . أما في غزة ، فيذكر أن غالبيتهم من أصول مصرية .

الرغبات الشعبية والخيارات الحرة

بتاريخ 8 تشرين الثاني \ نوفمبر 1918 وقبل انتهاء الحرب الكبرى بثلاثة أيام ، نشرت السفارة البريطانية في واشنطن البيان التالي في صحيفة النيويورك تايمز : " .. إن هدف فرنسا وبريطانيا العظمى من شنّ الحرب ، التي أطلقتها طموحات ألمانيا ، في الشرق الأدنى هو التحرير الكامل والنهائي " للشعوب " التي طالما اضطهدتها الأتراك وإقامة " حكومات " و " إدارات " تستمد سلطتها من المبادرة والخيار الحر للسكان الأصليين .. " . ولا يفوت القارئ هنا أيضاً ضبابية النصّ حين يتم تفادي ذكر تأسيس " دولة أو دول مستقلة " بل إقامة حكومات وإدارات في المنطقة . ولم تمض بضعة أشهر حتى برز شرط صغير سقط سهواً في البيان البريطاني آنف الذكر وتم تداركه هذه المرة في المادة 22 \ 4 من ميثاق عصبة الأمم لعام 1919 :

" لقد بلغت بعض المجتمعات التي كانت تتبع سابقاً للإمبراطورية التركية مرحلة من التطور بحيث يمكن الاعتراف بوجودها مؤقتاً كأمم مستقلة - شريطة - تقديم النصيحة والمساعدة لها من قبل الانتداب وإلى أن تتمكن من الوقوف على قدميها . إن رغبة هذه المجتمعات يجب أن يؤخذ بشكل رئيسي عند اختيار الانتداب عليها " .

فالتحرر الكامل والنهائي يشترط إذاً تقديم " النصيحة والمساعدة " من دولة انتداب يتم اختيارها بشكل حر - أي ديمقراطي- من قبل السكان الأصليين ! .

ولتنفيذ المادة 22\4 من ميثاق عصبة الأمم فيما يخص سوريا وبلاد ما بين النهرين كان لا بد من عقد عدة مؤتمرات لحسم الخلافات السياسية والحدودية بين الدولتين الاستعمارييتين بريطانيا وفرنسا . وبالفعل ، كان هنالك مؤتمرات في سان ريمو (نيسان \ أبريل 1920) وسيفر (آب \ أغسطس 1920) ولوزان (تموز \ يوليو 1923) . ولعل أهم البنود التي يجب التوقف عندها ومناقشة أبعادها في محاولة لفهم النوايا ، هما البنود 94 و95 في معاهدة سيفر .

المادة 94 : وتنص على تفعيل المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم فيما يتعلق بسوريا وبلاد ما بين النهرين وفلسطين بوضعها تحت الانتداب وترسيم حدودها من قبل مندوبين عن الحلفاء الرئيسيين فرنسا وبريطانيا وإيطاليا إضافة إلى تركيا وبمساعدة ممثلين عن سوريا وبلاد الرافدين ؛ كما يتم اختيار الدول المنتدبة لها من قبل دول التحالف الرئيسية .

المادة 95 : أفردت كاملاً لفلسطين ككيان خاص لا علاقة له بسوريا ؛ و يتم انتدابها وفق ميثاق عصبة الأمم من قبل دولة تحددها دول التحالف الرئيسية ، كما تنص المادة على التزام الدولة المنتدبة بتفعيل وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود من دون الإجحاف بالحقوق المدنية والدينية " للمجتمع غير-اليهودي المتواجد في فلسطين " .

ولا يخفى على القاريء ، عند مقارنة النصوص الأنفة الذكر ، وجود تعديلات " طفيفة ! " أضافها التحالف الاستعماري - اليهودي . فالاختيار الحر لدولة الانتداب في كل من سوريا وبلاد الرافدين لم يعد من شأن السكان الأصليين بل أوكل إلى دول التحالف الرئيسية بريطانيا وفرنسا . فلسطين لم تعد كما كانت جزءاً من سوريا بل أصبحت كياناً خاصاً يتوجب على دولة الانتداب تنفيذ وعد بلفور فيها . وفي المقابل ، أعطيت فلسطين ، بشكل ضمني و استثناءً عن غيرها من دول المنطقة ، كامل الحق في اختيار دولة الانتداب بشكل حر ووفق رغبة سكانها " الأصليين " . كيف ؟

لقد تمت الإشارة سابقاً إلى أن المنظمات اليهودية العالمية كانت قد طلبت في مؤتمر السلام في باريس بأن يُعهد بالسيطرة الكاملة على فلسطين إلى عصبة الأمم و أن تكون بريطانيا دولة انتداب . وفسّرت هذه المنظمات اختيار بريطانيا " .. بأنها رغبة اليهود في كافة أنحاء العالم " . وبما أن أعداد اليهود في الشتات أربعة عشر مليوناً وهم السكان " الأصليون " من منظور قومي و تاريخي بينما لا يتعدى أعداد المتواجدين من غير-اليهود في فلسطين ، آنذاك ، ستمائة وستين ألفاً فقط و بالتالي تمّ اختيار بريطانيا دولة الانتداب وفق رغبة الأكثرية وبشكل حرّ و ديمقراطي . ومن الأمور التي سقطت أيضاً سهواً في نص المادة 94 وجود ممثل فلسطيني عند ترسيم حدود هذا الكيان الجديد . فالمنظمات اليهودية كانت قد حددت ، كما أشرنا ، بشكل تفصيلي الحدود السياسية (وليست التوراتية) للوطن القومي الموعود . وهكذا ، ستترك مسألة الحدود النهائية للتفاوض وفق ما تقتضيه مصالح المهاجرين الجدد من اليهود ومصالح الدول المنتدبة بمعزل عن رأي الدخلاء المتواجدين آنذاك في فلسطين .

في الحقبة الزمنية التي بدأت بالحرب وانتهت بمؤتمر السلام في باريس ، لم تكن الولايات المتحدة قد أخذت بعد دوراً قيادياً في الساحة الدولية . كانت السياسة الخارجية الانعزالية هي السائدة إلى حد ما لدى الإدارة الأمريكية وكان الرئيس وودرو ويلسون ينتهج سياسة أقرب ما تكون إلى المثالية ، تمثلت في النقاط الأربعة عشر التي قدمها لمؤتمر السلام وفي رغبته الأكيدة في حق تقرير المصير للشعوب والدول التي بدأت تتشكل مع نهاية الحرب العالمية الأولى . ويمكن باختصار فهم المبادئ السياسية العامة التي اعتمدها ويلسون في عالم ما بعد الحرب من خلال تصريحه الشهير بتاريخ 4 تموز \ يوليو 1818 : " .. إن حلول كافة المشاكل المتعلقة بالأراضي أو الاستقلال أو التسويات الاقتصادية أو

العلاقات السياسية يجب أن تتم على أساس القبول الحر للشعوب المعنية بتلك الحلول ، وليس على أساس المصالح المادية أو الفوائد التي تجنيها الشعوب الأخرى منها .. " .

فبالنسبة للشرق الأدنى ووفق هذا المبدأ ، اقترح ويلسون تشكيل لجنة دولية للتعرف على حقيقة الأوضاع في المنطقة وإجراء الاستفتاءات الضرورية للسكان لتحديد وضعها المستقبلي . وقد وافقت بريطانيا وفرنسا على تشكيلها " من حيث المبدأ " . ولكونهما تتحكمان عسكرياً في المنطقة ولديهما مطامع خاصة في المنطقة ، لم تكن هناك رغبة حقيقية في إحياء مثل هذه اللجنة . وبعد أن تيقن ويلسون أن هذين الحليفين يماطلان ، قرّر في مايس ١ مايو 1919 إرسال لجنة أمريكية خالصة . وقد كتب في ذلك رأي ستانارد بيكر في صحيفة النيويورك تايمز⁹³ بأن ويلسون وبعد أن شعر آنذاك بأنه جرّ رغباً عنه إلى مستنقع من المكائد والمعاهدات السرية ، رأى أن الطريق الوحيد لتحقيق العدالة لسكان المنطقة هو إرسال لجنة (أمريكية) محايدة تستفتي رغبة السكان هناك .

ترأس اللجنة هنري كينغ وشارلز كرين (وعرفت باسم لجنة كينغ - كرين) وقامت بزيارة المنطقة على مدى أربعين يوماً⁹⁴ وثلاثة قطاعات في سوريا الكبرى كانت خاضعة للنفوذ البريطاني في فلسطين (القطاع الجنوبي) و العربي في سوريا وشرقي الأردن (القطاع الشرقي) و الفرنسي في أسكندرون والساحل السوري واللبناني (القطاع الغربي) ، وشملت الزيارة 33 مدينة رئيسية وعدداً من القرى . وخلال هذه الفترة ، استقبلت اللجنة 442 وفداً يمثلون قطاعات شعبية عريضة ، سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية . منها 140 وفداً في فلسطين وحدها . وتلقت اللجنة خلالها 1863 عريضة وتظلم واحتجاج (مكتوبة أو شفوية) وشملت ما يقرب من 91000 توقيع .

لقد تعرضت اللجنة ومعظم أهالي المنطقة في هذا الاستفتاء الشعبي إلى المضايقات بشكل خاص من قبل قوات الاحتلال البريطانية والفرنسية وبعض الجهات المحلية لتحريف نتائجه . وعبر تقرير اللجنة عن هذه المضايقات بالقول : " لم يغب عن عيوننا حقيقة وجود تلك الدعايات الهائلة و الضغوطات التي غالباً ما تعرض لها الأفراد والجماعات والوفود لإعاقة وصولها إلى اللجنة .. " . ومع ذلك ، توصلت اللجنة من خلال هذا الاستفتاء الشعبي إلى النتائج التالية ، كان أبرزها :

- الرغبة في سوريا موحدة 1500 عريضة بنسبة 80.4 %

⁹³ نيويورك تايمز 22 آب ١ أغسطس 1922
⁹⁴ في الفترة ما بين 10 حزيران ولغاية 21 تموز 1919

- الرغبة في الاستقلال الكامل لسوريا 1370 عريضة بنسبة 73.5 %

- الرغبة في حكم ملكي ديمقراطي 1107 عريضة بنسبة 59.3 %

- الرغبة في اختيار الدولة المنتدبة ، إذا كان الانتداب مفروضاً على سوريا

بريطانيا	0	0 %
فرنسا	1	0.05 %
أمريكا	8	0.4 %

- البرنامج الصهيوني

المعارضين للبرنامج الصهيوني 1350 بنسبة 72.3 %

نسبة المعارضين في فلسطين (العدد التقريبي للعرب الفلسطينيين 577000) 85.3 %

المؤيدين للبرنامج الصهيوني والهجرة اليهودية (العدد التقريبي لليهود في فلسطين 65000) 11 0.59 %

- المعارضين للمادة 22 من وثيقة عصبة الأمم 1033 بنسبة 55.3 %

ونتيجة لهذا الاستفتاء ، توصلت اللجنة إلى أن أكبر نسبة للرغبات الشعبية تتمثل في بقاء سوريا موحدة (80.4 %) والتي تشمل كيليكييا والصحراء السورية وفلسطين و تليها الرغبة في الاستقلال المطلق . أما اليهود في فلسطين ، الذين كانوا يشكلون أكثر من عشرة بالمئة بقليل من عدد السكان ، فهم يؤيدون جميعاً الصهيونية والانتداب البريطاني . وقد قدمت اللجنة إلى الدول المجتمعة في مؤتمر السلام بالعديد من التوصيات كان أهمها :

- إن الحرب وما تلاها من تفتت الإمبراطورية التركية تمنح فرصة لا تعوض لإنشاء سوريا ، كدولة في الشرق الأدنى ، تقوم على أسس معاصرة للحرية الدينية مع الحرص على مشاركة مختلف الديانات وحماية حقوق الأقليات بشكل خاص . ولعل من باب العدالة للعرب واعترافاً بالشعب العربي ورغبته القومية و تلبية للاهتمام العالمي الكبير والدائم أن تنشأ دولة عربية تبنى على أسس من التوجهات السياسية العصرية

- توصي اللجنة بالحفاظ على وحدة سوريا وبما يتفق مع الطلبات الجادة للغالبية العظمى من الشعب السوري ... فالبلد بغالبية عربي اللغة والثقافة والعادات والتقاليد .

- وضع سوريا تحت مظلة دولة انتداب واحدة فقط لضمان وحدتها الحقيقية ، وأن تكون الدولة المنتدبة الولايات المتحدة لفترة محدودة لعدم وجود طموحات استعمارية لديها⁹⁵

⁹⁵ كان ذلك في عام 1919 !

- توصي اللجنة بإدخال تعديلات جوهرية على البرنامج الصهيوني المتطرف والمتعلق بالهجرة اللامحدودة والهادف في النهاية إلى جعل فلسطين دولة يهودية بشكل واضح ، والذي لا يكافئ مفهوم وطن قومي لليهود . وقد توصلت اللجنة إلى هذه القناعة بعد اجتماعات عدة مع ممثلي اليهود بأن الصهيوينيين يتطلعون قدماً إلى طرد السكان الحاليين . فسكان فلسطين ، الذين يشكلون تسعة أعشار عدد السكان بالتقريب ، يؤكدون معارضتهم للبرنامج الصهيوني . إن تعريض الأهالي ، الذين يعارضون الهجرة اللامحدودة ، إلى ضغوطات اقتصادية واجتماعية بهدف التنازل عن أراضيهم هو انتهاك فاضح للمبادئ وحقوق البشر وحتى لو وضعت في إطار قانوني ... وقد تبين لأعضاء اللجنة من خلال المداولات مع الضباط البريطانيين عدم إمكانية تحقيق البرنامج الصهيوني إلا بقوة السلاح ، .. والادعاء الذي يقدمه ممثلو الصهيوينيين كثيراً "بحقهم" التاريخي في فلسطين على أساس امتلاكهم لها قبل ألفي عام لا يمكن أخذه بجدية

- بما أن المسلمين يقدّسون الأديان السماوية الثلاثة فمن الطبيعي أن يكونوا قيّمين على المناطق المقدسة في فلسطين أكثر من اليهود .

- توصي اللجنة بالسعي إلى خفض سقف البرنامج الصهيوني في مؤتمر السلام وأن يبدأ العمل به تدريجياً بشكل كبير . وهذا يعني قطعاً وجوب تحديد الهجرة اليهودية وضرورة غض الطرف عن جعل فلسطين كومونويلثاً يهودياً متميزاً .

أنجز تقرير كينغ - كرين بتاريخ 28 آب \ أغسطس 1919 ، أي في الفترة التي لاتزال قضية الإرث العثماني قيد التداول في مؤتمر السلام ، و سلم إلى وزارة الخارجية الأمريكية واختم في أدرابها ، ومن المعتقد أن الرئيس ويلسون لم يطلع حتى على مضمونه . بعد أكثر من ثلاث سنوات أي بعيد إقرار الكونغرس الأمريكي الانتداب على فلسطين ووعد بلفور ، نشرت صحيفة النيويورك تايمز التقرير كاملاً بتاريخ 3 و 4 كانون أول \ ديسمبر 1922 تحت عنوان بارز " تقرير كرين وكينغ حول الشرق الأدنى الذي تم إخفاؤه طويلاً " 96 . وكمقدمة للتقرير ، كتب وليم توماس إليس مقالة مطوّلة يشرح فيها للرأي العام الأمريكي أسباب دفنه طوال هذه المدة ، كان أبرز نقاطها :

" الحقيقة تأتي أولاً . يتم تحريف الكلمة اليوم لأن الحقيقة قد تم إخفاؤها أو تضليلها ... إن أحد أهم الوثائق التي تم طمسها في حقبة إحلال السلام هو التقرير الشامل لكينغ وكرين حول الأوضاع في تركيا . وهو تقرير أنجزته لجنة أمريكية رسمية أوفدت من باريس عندما تم طرح مسألة انتداب تركيا أمام الأربعة الكبار . التعليمات التي أعطيت للجنة هي تقصي الحقائق كما هي على أرض الواقع . ومضمون التقرير يوضّح بجلاء لماذا تم إخفاؤه بشكل صارم في وزارة الخارجية . ولو تم نشر التقرير فوراً ، كما كان مقرراً ، لغير مجرى الأحداث الحالية في تركيا وربما أيضاً مواقف أمريكا ومسؤولياتها الدولية في حقبة ما بعد الحرب . ومن المؤكد ، كان هذا التقرير قد حررنا من فيض الدعايات الكاذبة .

هذا التقرير مطلوب من الصحفيين وأساتذة التاريخ وأعضاء الكونغرس ووزارات الخارجية في أي مكان ومن كل من يبحث عن الحقيقة الناصعة .. إن الدفاع عن أهمية ما توصل إليه التقرير يكمن في تلك الفواجع التي حلت في الشرق الأدنى ..

- هو يعري شيطانية المعاهدات السرية (أي سايكس - بيكو) و يوضح التباين بين الوعود المقدسة التي قطعتها الأمم الأوروبية لشعوب الشرق الأدنى ومن ثم توجهاتها الاستعمارية اللاحقة
- وهو يزيح ستار الرقابة والدعاية التي أحاطت بالحقائق المتعلقة بالشرق الأدنى عن عيون العالم .
- هو يصور تعاوناً لا يصدق بين المسلمين والمسيحيين في متابعة حقهم لتقرير المصير
- وهو يؤكد القدر المشؤوم للصهيونية " .

في مقدمة ولیم إلیس إشارة واضحة إلى من وقف بخبث وراء إخفاء التقرير في أدرج وزارة الخارجية من الدولتين الاستعمارييتين وأعوان الصهيونية الدولية المختبئين في الإدارة الأمريكية . ودعوة إلیس للصحفيين وأساتذة التاريخ والدبلوماسيين في كل مكان لقراءة تقرير كينغ - كرين هي دعوة للتحرر من فيض الدعايات السياسية الكاذبة والإعلام المضلل ليس في عصره بل في العصور القادمة . ويبدو واضحاً أن الحكومة البريطانية واليهود في فلسطين كانوا يتابعون عن كثب أخبار الاستفتاء الجاري في المشرق العربي يوماً بيوم ويبلغون السيد بلفور بالنتائج . ولا أدل على ذلك أن الأخير بعث بمذكرة سرية إلى الحكومة البريطانية قبل أكثر من إسبوعين من تقديم تقرير كينغ - كرين يقول فيها " ... ليست لدينا حتى النية في إجراء استفتاء لرغبات " السكان الحاليين " في فلسطين ، رغم أن اللجنة الأمريكية (كينغ - كرين) لاتزال تقوم بالاستفتاء . إن القوى العظمى الأربعة ملتزمة بالصهيونية " 97 وكما جرت العادة عند أرباب الابتزاز العالمي ، كان على عضو اللجنة تشارلز كرين كغيره أن يتحمل تبعات الحقيقة التي توصل إليها وقدمها إلى العالم بصدق وأمانة ، ولو بعد عشرات العقود من الزمن ، بوسمه بمعاداة الصهيونية : " .. إن ميل كرين المعروف بمعاداة للصهيونية قد طغى على التقرير مما جعل مصداقيته موضع شك . ولعل أي مسألة تتعلق بموضوعية كرين في فلسطين قد حسمت من خلال إعجابه بألمانيا النازية " 98 .

بولندا المستقلة والمعاهدة الخاصة بالأقليات

97 The King Crane Report of 1919 , Hugh Gregory Gallagher , RALPH, Volume 29, Number 4

98 What was the King-Crane Commission of 1919 ? , Palestine Facts Web Site

المحور الثاني الذي ركزت عليه المنظمات اليهودية في مؤتمر السلام هو توقيع معاهدات خاصة بالأقليات العرقية واللغوية والدينية والثقافية بين الحلفاء المنتصرين في الحرب وبين بعض الدول التي تشكلت بعيد تفكك الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية إضافة إلى الأجزاء الغربية من روسيا القيصرية (حدود المستوطنة) . وقد قدمت هذه المنظمات في 10 أيار \ مايو 1919 مذكرة تطلب من دول الحلفاء التأكيد على تمتع الأقليات القومية والدينية والعرقية بحقوق المواطنة الكاملة في جميع الدول الناشئة حديثاً في أوروبا أو التي توسعت حدودها وعلى حق هذه الأقليات في الحفاظ على ثقافتها ولغاتها وتقاليدها . فإضافة إلى توقيع معاهدة السلام تم فرض معاهدات خاصة بالأقليات مع كل من بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا واليونان ولاحقاً مع دول أخرى . وقد حرصت المنظمات اليهودية على البدء مع بولندا ذات أكبر مجموعة يهودية لتكون نموذجاً يحتذى به . وهكذا نصت المادة 93 من معاهدة السلام على أن تقبل بولندا على تضمين المعاهدة الخاصة ، بينها وبين الحلفاء الرئيسيين والقوى المشتركة ، مجموعة مواد قانونية تعنى بحماية مصالح سكان بولندا الذين يختلفون عن غالبية السكان في العرق واللغة والدين .

في 27 حزيران \ يونيو 1919 نشرت صحيفة " كورييه فارشافسكي " نداءً إلى اليهود المتتورين تطلب إرسال قادتهم إلى مؤتمر السلام في باريس لمنع إدراج البنود الخاصة باليهود في المعاهدة . وتذكر الصحيفة أن مثل هذه البنود لا تحلّ مسألة يهود بولندا ، لأن من وضعها في المعاهدة يهدف إلى إجبار بولندا إلى البحث عن طرق ووسائل لإكراه اليهود على الهجرة . ومن الواضح أن الصحيفة كانت على بينة من الأهداف الحقيقية للمنظمات اليهودية والصهيونية لدفع يهود بولندا للهجرة . ورغم ذلك ، تم توقيع " معاهدة الأقليات البولندية " بتاريخ 28 حزيران \ يونيو 1919 في فرساي وكان أبرز بل وأغرب مافيها البندين 10 و 11 اللذين يستحقان الوقوف عندهما :

- يحظر إجبار اليهود القيام بأي عمل يمكن أن يشكل انتهاكاً لحرمة يوم السبت لديهم ، كما لايجوز تصنيفهم على أنهم غير مؤهلين بسبب رفضهم حضور المحاكم القانونية أو القيام بأعمال تجارية مشروعة في أيام السبت وعلى بولندا أن تعلن عن نيتها الامتناع عن الدعوة أو السماح بالانتخابات ، أكانت عامة أو محلية ، أيام السبت (البند 11) .

- في المناطق التي تتواجد فيها الأقليات العرقية أو اللغوية أو الدينية ، تتلقى هذه الأقليات حصة معقولة من الأموال المخصصة من الاعتمادات المالية العامة ... لأهداف التعليم والدين والأعمال الخيرية ... (البند 9) . وتقوم اللجان التعليمية ، المعينة من الجماعات " اليهودية " والخاضعة للإشراف العام للدولة ، بتوزيع الحصص النسبية للإعتمادات المالية على المدارس اليهودية (البند 10)

وقد تنبه الصناعي الأمريكي هنري فورد إلى هذه القيود المفروضة على بولندا . فحرص اليهود على حقوق الأقليات سيختزل في نهاية المطاف إلى حقوق الأقلية اليهودية ، كأن يحظر على بولندا القيام بنشاطات سياسية أو اقتصادية يوم السبت اليهودي . كما أشار فورد إلى نقطة لغوية خبيثة في صياغة

المعاهدة . فعندما يتعلق الأمر بالعموميات (البند 9) يتم التحدث عن " أقليات عرقية ودينية " ، أما عند التطرق لتوزيع الأموال (البند 10) تسقط كلمة الأقليات وتستبدل بكلمة اليهود حصراً . وهنا يطرح سؤال بديهي ، لم هذا الموقف المتشدد من بولندا ؟ فكما هو مثبت تاريخياً ، هاجر اليهود إلى هذا البلد في القرن الحادي عشر واستقروا فيه ومن ثم ما حوله كليتوانيا وأوكرانيا وغيرها . وقد نعم اليهود آنذاك بالتسامح وبالقوانين التي أصدرها العديد من الأمراء وبخاصة المتعلقة بشؤونهم الدينية والاجتماعية والتجارية . وقد وصل الأمر باليهود إلى التحكم بمفاصل التجارة إلى حدّ تم فيه صك النقود البولندية الممهوره باللغة العبرية في القرن الثالث عشر . ولعل أفضل مثال على ما تمتع به اليهود من مميزات ، تفوق في بعضها ما تمتع به المواطنون أنفسهم ، هو ما سمي - الشرعة العامة لحريات اليهود - التي أصدرها الدوق بوليسلاف في أواسط القرن الثالث عشر، والتي تضمن لهم حرية الدين واللغة والسفر والتجارة والمقاضاة ، نقّتبس بعضها :

- يحق لأي يهودي التنقل بحرية من مدينة إلى مدينة أو مقاطعة إلى مقاطعة ... مصطحباً سلعه وبضائعه وبحق له بيعها أو شراء غيرها .

- إذا دخل اليهودي والمسيحي في عراك أدى إلى الضرب أو إحداث الجروح ، فلا يحق لقاضي المدينة أو الحاكم وحتى أي شخص آخر إصدار حكم في النزاع ، بل تتم المقاضاة من قبل المخول عن اليهود في البلاط الملكي ، ويكون مكان المحاكمة في موقع يهودي .

وفي منتصف القرن السابع عشر ، أصبح أعداد اليهود في بولندا يقارب 30% من أعداد اليهود في العالم . ومع تزايدهم العددي أخذت الاحتكاكات بينهم وبين البولنديين تتزايد مع مرور الوقت على شكل اعتداءات في بعض المناطق واحتجاجات على الأمراء الذين يحمون اليهود وعلى سياساتهم المالية والضريبية التي كان اليهود يتولون إدارتها . ويذكر المؤرخ اليهودي لازار إن اليهود في بولندا قد عاشوا في نعيم حتى القرن السابع عشر ، أغنياء وأقوياء ولكنهم لم يستطيعوا الإقلاع عن عيوبهم ونقائصهم في التجارة والسعي وراء الذهب ⁹⁹ . كما تشير الموسوعة البريطانية في إصدارها الحادي عشر ¹⁰⁰ إلى أن اليهود قد استقروا في بولندا قرابة 800 - 1000 عام ، وبالتالي يصعب اعتبارهم " غرباء " عن أرضها . وفي الحقيقة ، فإن النزاعات الحالية بينهم وبين البولنديين لم تبدأ إلا منذ عشرين سنة مضت . لقد طرد القياصرة الروس اليهود من أراضيهم (إلى حدود المستوطنة) ولكنهم في المقابل أعطوهم مزايا فريدة في بولندا .

99 Bernard Lazare , Antisemitism, 1894
100 إصدار عام 1910-1911 وملحقه لعام 1922 .

مع إشراف الحرب العالمية الأولى على نهايتها ، بدأ النزاع يزداد شدة بين الطرفين . فقد كان اليهود يعارضون استقلال هذا البلد المقسم وكان بعضهم يتعاون مع الجيش الألماني وبعضهم الآخر مع البولشفيين الروس . كانت عمليات الاقتحام والانسحاب المتبادلة تجري على الأرض البولندية وعلى نطاق واسع بين البولنديين والجيش الأجنبية . وبسبب موقفهم هذا حدثت أعمال عنف وشغب في بعض المدن والقرى البولندية ، مثل كيلسه وليمبرغ وبينسك وليدا ومينسك وغيرها ، قتل خلالها عدد من اليهود ونهبت بعض محلاتهم التجارية . ونتيجة الأوضاع الأمنية والاقتصادية المتردية في المدن والمناطق التي كانت مسرحاً للأعمال الحربية والمناوشات وفقدان المواد الغذائية ، فقد تزايدت هجرة اليهود البولنديين إلى أمريكا وبريطانيا وغيرها بشكل كبير ¹⁰¹ . وقد ساهمت الصحافة اليهودية في بولندا والولايات المتحدة في تهويل الأحداث وأرقام الضحايا . كما لعبت أيضاً الدعاية اليهودية المعادية لبولندا الناشئة دوراً في ذلك . فعلى سبيل المثال ، نشرت الصحيفة النمساوية " نويه فرايه برسّه " في تشرين الثاني \ نوفمبر 1918 أن عدد ضحايا العنف من اليهود في مدينة لومبرغ يتراوح ما بين 2500 – 3000 شخص ، رغم أن اللجنة اليهودية في المدينة نفسها قد أعطت عددهم بحوالي 76 كحد أقصى .

لقد دفعت الهجرة الكبيرة لليهود والأخبار المزعجة حول هذه الأحداث كلاً من الولايات المتحدة وبريطانيا إلى إرسال لجننتين منفصلتين لتقصي الحقائق ورفع تقارير إلى المسؤولين في البلدين حول طبيعة العداء للسامية في بولندا ودور الحكومة في ذلك . وعلى غرار التقارير السابقة للقناصل البريطانيين في روسيا القيصرية و لجنة كينغ – كرين في المنطقة العربية ، فمن المفيد الإشارة إلى هذين التقريرين بشيء من التفصيل لفهم الوقائع بشكل أفضل . فبريطانيا التي رفضت إرسال بعثة لتقصي الحقائق إلى المنطقة العربية كما أسلفنا ، سارعت إلى تشكيل لجنة إلى بولندا برئاسة ستيوارت صمويل وعضوية الكابتن بيتر رايت ، من الجيش البريطاني ، وبمشاركة سفير بريطانيا في وارسو هوريس رامبولد . واختيار ستيوارت صامويل لرئاسة الوفد لم يكن بطبيعة الحال عفويًا . فهو يهودي-بريطاني من كبار المناصرين للحركة الصهيونية وأخو هيربرت صامويل الذي عين مفوضاً سامياً في فلسطين . أما البعثة الأمريكية فكانت برئاسة السفير هنري مورغنثو (الأب) وعضوية الجنرال إدغار جادوين ، من الجيش الأمريكي ، والمحامي هومر جونسون . مورغنثو أيضاً كان يهودياً – أمريكياً ، شغل منصب سفير الولايات المتحدة لدى الدولة العثمانية قبيل وفي بداية الحرب العالمية الأولى إن ما يلفت النظر أولاً هو اختيار يهوديين لرئاسة كل من بعثتي تقصي الحقائق حول أوضاع اليهود في بولندا

¹⁰¹ في أيار \ مايو 1920 ، أنشأت سفارة الولايات المتحدة قسماً خاصاً في قنصليتها في وارسو لدراسة 250000 طلب هجرة تقدم بها يهود بولنديون (الكتاب السنوي لليهود الأمريكيين ، المجلد 22)

. فكلا الرجلين اللذين تم اختيارهما لهذه المهمة كانا مرتبطان ، كما تدل سيرتهما الذاتية ، بأجندات سياسية مشبوهة سواءً في التحريض على الحرب العالمية 102 أو الترحيب بوعده بلفور واتفاقية سايكس - بيكو 103 . ومما يبعث على الدهشة أن تتقدم كل بعثة منهما بتقريرين منفصلين على غير ما هو متبع ، تقرير للرئيس اليهودي وآخر لغير اليهود من الأعضاء . وبالفعل ، يذكر الجنرال جادوين وهومر جونسون في تقريرهما المستقل أن الاستنتاجات التي توصلوا إليها تختلف عن استنتاجات رئيس اللجنة مورغنثو . وبالتالي ، كيف يمكن للقيادات السياسية في كلا البلدين أن تصل إلى حقيقة الأوضاع في بولندا ما بعد الحرب عند وجود مثل هذه الاستنتاجات المتناقضة ؟ في هذه الحالة ، سيبرز ببساطة دور اللوبي اليهودي وقوة المال ونشاط الدعاية الإعلامية في تسليط الضوء على تقرير رئيس الوفد وترك تقرير الأعضاء في الظلام . كان التقرير الأكثر تطرفاً لمصلحة اليهود هو تقرير هربرت صمويل ، في حين حاول مورغنثو أن يكون متوازناً بعض الشيء إلا أن عاطفته و يهوديته قد غلبته بين الحين والآخر . الأمثلة التالية تقدم نماذج قليلة حول تناقض شهادات واستنتاجات رئيسي البعثتين اليهوديين والأعضاء من غير اليهود :

يقول مورغنثو : " .. لقد تفاديت استخدام كلمة بوغروم Pogrom حول أحداث بولندا ، لأنها قد تتراوح ما بين اعتداءات صغيرة وصولاً إلى مذبح منظمة مع سبق التصميم والتخطيط ... ففي نهاية الحرب العالمية الأولى اتسم الوضع في بولندا بالفوضى غير الطبيعية ومهد الطريق لحالة من الغليان الاجتماعي والسياسي " .

- " ففي (مدينة) مينسك ... تم إطلاق الرصاص على ثلاثة من الضحايا الجرحي بدم بارد بعدما تبين أنهم لم يفارقوا الحياة بعد .. " .

- " وفي مينسك ، قتل الجنود البولنديون واحداً وثلاثين يهودياً ... ، وبمساعدة المدنيين نهبوا 377 متجراً جميعها تخص اليهود ، إلا أنه تجب الإشارة إلى أن حوالي 90 % من المتاجر في مينسك يملكها اليهود " .

- " ومن المعتقد أن هذه التجاوزات جاءت نتيجة لانتشار العداء للسامية وتفاقت بسبب اعتقاد السكان أن اليهود كانوا معادين سياسياً (لفكرة إنشاء) الدولة البولندية .. " .

الجنرال جادوين : " .. وعلى الرغم من وجود عداء للسامية والناجم عن عوامل مختلفة ، فنحن مقتنعون أن الخلافات الدينية لم تلعب دوراً هاماً (في هذه الأحداث) " . ويضيف : " .. أن من بين العوامل الأساسية التي أدت إلى الحوادث الحالية أنه خلال الاحتلال الألماني لبولندا ، وبسبب التشابه اللغوي بين الألمانية واليديشية واستعداد عناصر من اليهود في إقامة علاقات مع ألمانيا ، تم استخدام اليهود كعملاء لأغراض متعددة ووعده بإعطائهم ليس فقط حماية خاصة بل بمنحهم حكماً ذاتياً . ويتهم الشعب البولندي اليهود بالمضاربة بالمواد الغذائية (أثناء الحرب) والتي شجعها جيش الاحتلال بغرض تصديرها إلى ألمانيا والنمسا " .

102 The Story behind Ambassador Morgenthau's Story , Heath Lowry , 1990

103 في عام 1917 ، شارك ستيفارت صمويل وجيمس دي روتشيلد ومارك سايكس في مظاهرة في مانشستر تأييداً لوعده بلفور (Jewish Chronicle,14 Dec.,1917)

ويتفق السفير البريطاني هوريس رامبولد في الرأي مع الجنرال جادوين ، وإن كان أكثر دبلوماسية : " .. إن تشابه اللغة قد يكون السبب في استخدام الألمان لعدد كبير من اليهود أثناء احتلالهم لبولندا ، رغم أنه بالإمكان إيجاد الكثير من البولنديين ممن يتقنون الألمانية .. والفارق هنا أن البولنديين كانوا يعتبرون الألمان أعداءهم " .

وفي المقابل ، يرى السير ستيوارت صمويل أن تعاون اليهود مع المحتلين الألمان ماهي إلا تهمة : " .. وحقيقة أن لغة اليهود (اليديش) مشابهة للغة الألمانية ، فقد دعا ذلك إلى توظيفهم أثناء الاحتلال وتفضيلهم على البولنديين . هذا الوضع أدى إلى اتهام اليهود بارتباطاتهم التجارية مع الألمان .. " .

و حول دفع الحكومة البولندية التعويضات المالية للمتضررين اليهود جراء تلك الأحداث فقد نقلت إلينا من أعضاء اللجنتين على النحو التالي :

ستوارت صمويل : " لم تدفع أية تعويضات عن الأضرار التي حدثت "

هنري مورغنثو : " لقد أخطرت اللجنة أنه بناءً على التحقيقات الحكومية الرسمية بدأ دفع مطالبات الأضرار الناجمة عن هذه الحوادث "

الجنرال جادوين : " لقد بدأ بالدفع في كل من فيلنا وبينسك وليمبيرغ قبل مغادرة (البعثة) بولندا "

ولعل من أطرف المظالم التي تقدم بها اليهود إلى بعثة التحقيق الأمريكية على أنها جزء من الاضطهاد والعداء للسامية التي يتعرضون لها في بولندا هي " الحصار الاقتصادي " . ففي المظلمة المرفوعة ، بتاريخ 27 تموز \ يوليو 1919 ، من مجلس الجماعة اليهودية في مدينة بياالستوك ، تذكر : " أن إنشاء الجمعيات التعاونية (الجمعيات الاستهلاكية التي أقامتتها الحكومة) تهدف إلى جعل التجارة بولندية خالصة بحصولها على المساعدات الحكومية والإعفاءات الضريبية ؛ وهذا يؤدي إلى الإضرار بالمئات من التجار اليهود ونهب مدخولهم المالي .. " 104 . وهكذا ، فإن قيام الحكومة البولندية بتقديم بعض العون من المواد الغذائية والاحتياجات الأساسية لمواطنيها المتعبين والبانسين ، قبيل وأثناء وبعد حرب عالمية طاحنة ومجاعات شملت معظم أرجاء أوروبا ، يفسرها اليهود على أنه حصار اقتصادي عليهم ، و شكل من أشكال العداء للسامية والاضطهاد ونهب مدخولهم المالي .

فصل آخر من المظالم الطريفة ، لا بدّ من ذكره ، يدرج أيضاً في الباب الواسع للعداء للسامية وفق المنظور اليهودي . يذكر في المجلد 22 من الكتاب السنوي لليهود الأمريكيين (الصفحة 244) إنه

¹⁰⁴ To the American Commission to investigate the position of the Jews in Poland :

" Cooperative societies are working with a special end to polonise the trade, being subsidized by the government and enjoy different franchises (exemption of taxes etc.), that leads to a full ruin of hundreds of Jewish tradesmen, who are robbed of their earning and lose certainly the ground under their feet. The result of this policy in trade is the ruin of the entire commerce of the Jewish population in the city. .. "

Jewishgen Organization , Report of the Jewish Community Council in Bialystok

في 9 كانون الثاني \ يناير 1920 ، صدّق البرلمان البولندي على قانون يقضي بمنع العمل في أيام الأاحاد باعتباره يوم راحة أسبوعية . وإلى هنا يبدو الخبر عادياً . ولكن ماهو غير عادي ، احتجاج اليهود على هذا القانون . فاليهود ، كما بيّنا سابقاً ، كانوا قد طالبوا في معاهدة الأقليات البولندية بجعل يوم السبت عطلة خاصة بهم وفرض ذلك على الشعب البولندي بموجب المعاهدة . والقانون الجديد ، الذي أصدره البرلمان ، يعني بالنسبة لتجارهم يوم عطلة إضافي وبالتالي مكاسب مادية أقل . وهنا بدأت صيحاتهم وتهديداتهم تتعالى في الداخل والخارج بأن البولنديين يسعون إما إلى تجويعهم وإفقارهم أو إجبارهم على التخلي عن دينهم . وكان ردّ أعضاء البرلمان ان معاهدة الأقليات التي صادقوا عليها لا تنص على إمكانية عمل اليهود يوم العطلة الأسبوعية الرسمية للبلد . وان العمل في كل من بريطانيا وأمريكا يتوقف أيضاً أيام الأاحاد .

وفي تقريره الصريح والملفت للنظر ، يصف عضو اللجنة البريطاني الكابتن بيتر رايت أن غالبية اليهود الفقراء في بولندا هم من الأرثوذكسيين المتشددون ... والتوصية الوحيدة له هي أن على اليهود الأغنياء دراسة أوضاع الفقراء منهم العاملين كباعة متجولين أو كعمال غير مؤهلين ... وعندما يهاجر هؤلاء فإنهم يدفعون إلى ممارسات غير مشروعة أو احتيالية . ففي بريطانيا ، يتهمون بنسبة كبيرة من إدانات الجرائم . فهم غير مؤهلين للحياة الاقتصادية المعاصرة نظراً لحاجتهم إلى التعليم إضافة إلى عاداتهم ونقص نظافتهم . إنهم متعصبون لديانتهم القديمة والغريبة ، ولكن ما أن يصبحوا أغنياء فإن تقواهم ينهار أمام الثراء . إن من يعرف بولندا بحق لن يستغرب مواقف البولنديين أو رغبتهم بالخلاص من هذا التأثير الفاسد .

إلى فلسطين

على الرغم من التعصب الديني والحلم بالعودة إلى أرض الميعاد ، يمكن الادعاء بأن الهجرة إلى فلسطين لم تكن هدفاً رئيسياً للغالبية العظمى من الجماعات اليهودية في الشتات . كما يمكن الادعاء بأن دوافعهم الدنيوية ورغبتهم في الثراء كانت ولا تزال أقوى بكثير من هيكل سليمان وجبل صهيون . ولابد أن المنظمات اليهودية والصهيونية كانت تشعر بالإحباط وخيبة الأمل من تدني نسبة المهاجرين إلى فلسطين رغم الجهود الجبارة السياسية والمالية والإعلامية التي بذلتها لحثهم على ذلك . هذا العزوف الجماعي ليس بجديد . ففي دراسة تاريخية مقارنة بعنوان " العودة من بابل ، ثانية " 105 حاول معدها أن يبين أوجه التشابه بين عودة اليهود إلى " أرض إسرائيل " ، بعد أسرهم في بابل على يد نبوخذ نصر ، وبين عودتهم المعاصرة من الشتات إلى فلسطين كما سعت إليها الحركات اليهودية و

الصهيونية . الأمر الذي لم يلتفت إليه الدارس ، عن قصد أو غير قصد ، هو أعداد العائدين من اليهود إلى فلسطين في كلتا هاتين الحقتين المتباعدتين من الزمن . ففي العام 537 قبل الميلاد ، وبعد سقوط بابل بيد الفرس سمح الملك كورش لليهود المَسبيين بالعودة إلى فلسطين وإعادة بناء الهيكل . ماحدث آنذاك أنه لم يقبل بالعودة سوى عدد يسير يزيد بقليل عن أثنين وأربعين ألفاً من أصل ما يقرب من مليون يهودي كانوا يعيشون في الإمبراطورية الفارسية ، كما يشير إلى ذلك الحاخام المؤرخ كِن سبيرو 106 . كيف لنا أن نفسر أن أكثر من خمسة وتسعين بالمئة قد فضّلوا البقاء في بابل على العودة ؟ فعلى عكس ما هو سائد في حالات الترحيل القسري أثناء الحروب ، تمتع اليهود ، أثناء سببهم في بابل ، في ظلّ الرعاية الملكية ، بامتيازات خاصة وكانوا أكثر سعادة من إخوتهم الذين لم يُرحّلوا إلى بابل . ووفق كتاب عزقيال في العهد القديم ، سمح لهم هناك بممارسة الأعمال وتجميع الثروات 107 . كما يشير كتاب عزرا (1: 5-6) بأن الذين فضّلوا البقاء في بابل ، قد تبرعوا لإخوتهم العائدين إلى أورشليم بأواني الفضة والذهب وبالمال والبهائم مما يدلّ على غناهم. كان الرخاء المادي هو السبب الرئيسي في بقاء الغالبية العظمى من اليهود في بابل ورفضهم العودة إلى فلسطين .

مابين " وعد كورش " و " وعد بلفور " قرابة 2400 عام . وهنا أيضاً يعيد التاريخ نفسه و تتكرر قصة يهود بابل مع يهود أوروبا الشرقية . فنسبة الطامحين بالعودة إلى أرض الميعاد في القرن العشرين لم تكن أفضل من سابقتها إذا جاز التعبير .

ولحسن الحظ ، تتوافر معلومات إحصائية شبه موثوقة عن وجهة الهجرات اليهودية الكبرى منذ نهاية القرن التاسع عشر . إذ يذكر تقرير المفوض السامي البريطاني في فلسطين هربرت صامويل بأن عدد اليهود قبل عام 1850 لم يزد على بضع عشرات ؛ فيما يقدر عددهم في العام 1921 بحوالي 76000 ، هاجر معظمهم إليها في السنوات الأربعين الماضية بعد أحداث الشغب والفوضى في روسيا القيصرية . وفي الواقع ، فمنذ دخول القوات البريطانية إلى القدس والمتزامن مع وعد بلفور ومطلع عام 1922 هاجر إلى فلسطين أقل من 19000 يهودي 108 . ويعطي نمط الهجرة ، ما بين الأعوام 1917 - 1937 ، إلى كل من فلسطين والولايات المتحدة ، مؤشرات تدعّم هذا التوجّه . ففي تلك الفترة ارتفع عدد اليهود في الولايات المتحدة بمقدار مليون وثلاثمئة ألف شخص 109 ، بينما لم يزد عدد المهاجرين الجدد إلى فلسطين عن مئتين وسبعة وتسعين ألفاً . مؤشر آخر يسترعي الانتباه هو ظاهرة الهجرة المعاكسة . فما بين الأعوام 1922 و 1931 ، هاجر إلى الولايات المتحدة 226610 يهودي وغادرها 3419 ، بعضهم تمّ ترحيله من السلطات الأمريكية ، أي أن نسبة المغادرين هي 1.5 % .

106 Rabbi Ken Spiro, The Jews of Babylon 2 Sept., 2001

107 The Jewish Encyclopedia Richard Gottheil

108 American Jewish Year Book , Vol. 44

109 بما في ذلك التزايد الطبيعي للسكان اليهود

وفي الفترة ذاتها ، هاجر إلى فلسطين 94162 يهودي وغادرها طوعاً 27809 ، أي ما نسبته 29.53 % من أعداد المهاجرين إليها .

لم يكن التحوّل الجزئي لوجهة الهجرة من الولايات المتحدة إلى فلسطين بشكل عام طوعياً ، بل نتيجة عوامل متعددة . إذ يبرر تقرير ، رفعه وزير الخارجية البريطاني لشؤون المستعمرات إلى البرلمان البريطاني بتاريخ تموز/ يوليو 1937 ، أسباب تمحور الهجرة اليهودية إلى فلسطين في تلك الحقبة من التاريخ بشكل رئيسي إلى :

- القيود المشددة التي فرضتها الولايات المتحدة على الهجرة إليها .
- بداية الحكم للحزب الوطني الاشتراكي في عام 1933 في ألمانيا بزعامة هتلر ، و المعروف بمعاداته لليهودية والبولشفية السوفياتية .
- التراجع الاقتصادي المتزايد الذي شهدته بولندا .

وحتى في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، لم تتبدل نظرة يهود أوروبا الشرقية بشأن الهجرة إلى فلسطين ، وبقي الحلم لدى غالبيتهم هو الهجرة إلى الولايات المتحدة أو أوروبا الغربية ؛ إلا أن المنظمات اليهودية والصهيونية كانت تسعى بشكل مستمر لدفع الهجرة نحو فلسطين . بل يمكن القول إن الولايات المتحدة قد تدخلت لإجبارهم على هذه الهجرة . فلقد نجم عن الحرب العالمية تشرد ونزوح عشرات الألوف منهم ، وكان على قوات الحلفاء ومنظمات الإغاثة أن تبحث لهم عن مأوى . وفي أواخر عام 1945 ، طالب الرئيس هاري ترومان باتخاذ الإجراءات اللازمة لمساعدة المشردين اليهود في أوروبا والموافقة على قبول 100000 يهودي إلى فلسطين . واقترحت بريطانيا كدولة انتداب تشكيل لجنة مشتركة بريطانية - أمريكية لتقصي حقائق ودراسة أوضاع هؤلاء المهجرين والمشردين إضافة إلى الوضع العام في فلسطين¹¹⁰ . وكان من أبرز ملاحظات و توصيات اللجنة بهذا الشأن :

- التأكيد على اقتراح الرئيس ترومان السماح لهذا العدد بالهجرة إلى فلسطين .
- تأكيد اللجنة على وجود رغبة عارمة بين يهود بولندا وهنغاريا في الهجرة منهما ، وأن الولايات المتحدة هي خيارهم الأول ، إلا أن القوانين المعتمدة فيها حالياً ، تجعل مثل هذه الهجرة على نطاق واسع مستحيلاً .
- لاحظت اللجنة قيام العديد من المنظمات اليهودية ، التي تعمل في بولندا ، بالاتصال بالمشردين وتشجيع الراغبين بالهجرة منها التوجه نحو فلسطين .
- تشير تحريات اللجنة أن عدداً معتبراً من اليهود يرغبون في متابعة حياتهم في معظم الدول الأوروبية

- دلت تحريات اللجنة على تواجد ما يقرب من 150000 يهودي في القطاع البولندي التابع للإتحاد السوفياتي ، و 80000 في بولندا نفسها ، و أعداد الراغبين في الهجرة إلى الخارج 200000 . وهناك أيضاً حوالي 98000 يهودياً لاجئاً هربوا إلى القطاعات التابعة لدول الحلفاء الرئيسيين (الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا) في كل من ألمانيا والنمسا و إيطاليا ، وتم إيواءهم في مخيمات ومراكز خاصة . ويبين الجدول (2) جنسيات هؤلاء اللاجئين .

الدولة	عدد اليهود من سكانها	عدد اللاجئين اليهود	جنسيات اللاجئين
النمسا	7000	8000	73% بولنديين والباقي من هنغار وتشيك ورومانيين
ألمانيا	20000	74000	85% بولنديين والباقي من ليتوانيا وهنغاريا ورومانيا
إيطاليا	30000	16000	75% بولنديين والباقي هنغار وتشيك ورومانيين

الجدول (2)

وبالفعل ، فقد تمّ نقل هؤلاء إلى فلسطين كما يشير إلى ذلك الكتاب السنوي للأمريكيين اليهود 111 ، بأن عملية إخلاء مخيمات المهجرين قد انتهت في النصف الثاني من عام 1949 ، وأن الأعداد الكبرى من هؤلاء المهاجرين هم من بولندا وروسيا .

أما لماذا أصّر الرئيس الأمريكي ترومان على إغاثة يهود بولندا وشرقي أوروبا في محتنتهم بإرسالهم إلى فلسطين فقد تم الكشف عنه مؤخراً بعد العثور على مخطوطة لمذكراته الخاصة ، والتي أثارت صدمة عنيفة لليهود العالم وأقطابهم ومنظماتهم . فقد كتب ترومان بعد لقائه مع وزير الخزنة السابق اليهودي هنري مورغنثو : " لقد قام هنري بإحضار ألف يهودي إلى أمريكا زاعماً أنه حلّ مؤقت (أي تمهيداً لترحيلهم إلى فلسطين المنتدبة من بريطانيا) وها هم قد بقوا في نيويورك " . وفي موضع آخر ، كتب معلقاً : " إنني أجد اليهود في منتهى الأنانية . إذ لا يهمهم كم من المهجرين الأستونيين واللاتفيين والفنلنديين والبولنديين واليوغسلاف أو اليونانيين يقتلون أو تساء معاملتهم ، طالما يلقون هم معاملة خاصة " 112 .

تدلّ المعطيات السابقة بأن البؤرة الرئيسية التي انطلقت منها الجماعات اليهودية إلى فلسطين هي حدود المستوطنة الروسية ؛ أو الدول التي انفصلت واستقلت بعد انهيار حكم القيصرية الروس . ويضاف إلى هؤلاء الجماعات أعداد أقل جاؤوا من بعض دول أوروبا الشرقية ، مثل رومانيا وتشكوسلوفاكيا وبلغاريا . وقد شكلت هذه الجماعات مانسبته 78 % بالتقريب من المهاجرين عند إنشاء إسرائيل . إن أحداث الشغب والعنف (البوغروم) التي عصفت في أنحاء حدود المستوطنة كانت السبب الرئيسي وراء بداية الهجرة اليهودية الطوعية إلى الولايات المتحدة أو القسرية إلى فلسطين . أما القلة من اليهود التي هاجرت من دول غربية إلى فلسطين فجاءت وهي تحمل جنسيات مزدوجة . وهذا النوع من المهاجرين ثنائي الولاء ، يخدم علمين وينقل بندقيته من كتف إلى آخر بلمح البصرتبعاً للضرورة العسكرية والمادية لإسرائيل .

فالهدف الحقيقي للوطن القومي كان زرع جميع أولاد الشتيتل فيها بشكل رئيسي . هذا ما تؤكدته مقولة هرتزل " سيكون أوائل من سيهاجر هم عمالنا غير المؤهلين من المخزون الهائل في روسيا ورومانيا " . وبعد الحرب العالمية الثانية و تقسيم فلسطين ، قامت المنظمات اليهودية والصهيونية بجهود هائلة لإضفاء صفة " دولة يهود الشتات " أو " دولة لكل يهود العالم " على الدولة المستحدثة . وقد أدى الفشل في استقطاب يهود العالم الغربي والسواد الأعظم من يهود أوروبا الشرقية إلى السعي لاستقطاب يهود آسيا وإفريقيا . وقد قامت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة بنقل عدد منهم إلى إسرائيل ، كعمليات عزرا ونحميا لتهريب يهود العراق في أوائل الخمسينات من القرن العشرين ؛ وعمليات موسى ويشوع وسليمان لنقل يهود أثيوبيا (الفلاشا) في الثمانينات والتسعينات . ولما استنفذت كل مساعي لِمَ المشتتين ، لم يجد أولاد الشتيتل بداً من العودة ثانية لِمَ الشمل مع إختهم وأحفادهم الباقين في الإتحاد السوفياتي . ففي أواخر الثمانينات ، سمحت السلطات السوفياتية لأكثر من سبعين ألف يهودي بالهجرة إلى إسرائيل . ومع ذلك ، وصل منهم فعلاً قرابة إثنتا عشر ألفاً أما الباقون فشقوا طريقهم إلى الهدف المعتاد ، الولايات المتحدة .

هكذا فهم الأمر أولاد الشتيتل ، وعلى هذا الأساس بنوا هيكلية دولتهم الجديدة . هذه الهيكلية يمكن التعرف عليها من خلال السير الذاتية لرواد هذه الدولة ، والمبينة في الجداول التالية :

الجدول (3) : الموقعين على ما يعرف بوثيقة الاستقلال

الجدول (4) : رؤساء الدولة المتعاقبين

الجدول (5) : أعضاء الوزارة المؤقتة والوزارات الأولى

الجدول (6) : أعضاء أول كنيسيت

- وقّع على وثيقة الاستقلال 37 شخصاً ، كان منهم 83.8 % من القادمين من حدود المستوطنة الروسية و 2.7 % من أوروبا الشرقية (أي أن نسبتهم الإجمالية 86.5 %) . أما الموقعين من يهود أوروبا الغربية فلم يزد على 8.1 % .

- يستفاد من الجدول (3) أنه منذ عام 1948 وإلى اليوم تناوب على رئاسة الدولة العبرية تسعة أشخاص ، خمسة منهم من مهاجري حدود المستوطنة وأثنان من مواليد فلسطين (واحد منهم تعود جذوره إلى بلاروسيا) وواحد من إيران . أما الرئيس الوحيد الذي هاجر من أوروبا الغربية فكان حايم هرتسوغ .
- وفي الفترة ذاتها ، تولى رئاسة الوزارات ثلاثة عشر شخصاً ، سبعة منهم من مواليد حدود المستوطنة الروسية وستة من مواليد فلسطين . وتؤكد السير الذاتية لهؤلاء الستة أن خمسة منهم تعود جذورهم إلى المستوطنة أو أوروبا الشرقية (أي من الجيل الثاني) . أما السادس (إيجال ألون) فلا تتوفر معلومات عن موطنه الأصلي ، وأن كان إسم عائلته الحقيقي هو " بيكوفيتش" يشي بالجهة التي قدم منها آبائوه وأجداده .

ولا تشدّ الحكومة المؤقتة التي تشكلت في آذار ١ مارس 1949 عن هذه القاعدة . فسبع وسبعون بالمئة من أعضائها جاؤوا من المستوطنة الروسية ، كما هو مبين في الجدول (5)
- في عام 1949 تم انتخاب أعضاء الكنيست ، المكوّن من 120 عضواً (منهم 3 فلسطينيين من عرب 1948) إضافة إلى 10 إحتياطيين بدلاء . وتدلّ الإحصائية أن المهاجرين من حدود المستوطنة يمثلون 69.3 % ومن دول أوروبا الشرقية 6.3 % ، وهذا ما يجعل نسبة تمثيلهم الإجمالي 75.6 % . أما اليهود من مواليد فلسطين (من دون الرجوع إلى نسبهم ومواطنهم الأصلية) فيمثلون 11 % . ويلاحظ هنا أن هذه النسب تعكس بالتقريب التوزيع السكاني للدولة العبرية والبؤرة الرئيسية التي تدفق منها المهاجرون .

الدولة	المدينة / القرية	الهجرة إلى فلسطين	May 14, 1948	مدة الحياة	الموقعين على وثيقة الاستقلال	الاسم الأصلي	الاسم
Poland	Plonsk	?	1906	1886 - 1973	- Gruen	David Ben-Gurion	
Galicia			1914	1893 - 1962	-	Daniel Auster	
Poland	Grodzisk		1920	1900 - 1985	- Gutgeld	Mordekhai Bentov	
Ukraine	Poltava		1907	1884 - 1963	- Shimshelvit	Yitzhak Ben-Zvi	
Belarus	Mohilev		1907	1866 - 1959	-	Eliyahu Berligne	
Germany	Meiningen		1936	1890 - 1971	- Shlomo Fritz	Peretz Bernstein	
Poland	Szczecin		1935	1889 - 1956	- Zev Krawczynski	Wolf Gold	
Moldova	Ribnita		1927	1905 - 1963	- Meyer Grabovsky	Meir Argov	
Poland	Warsaw		1933	1879 - 1970	-	Yitzchak Gruenbaum	
Moldova	Falesti		1924	1890 - 1962	- Granovsky	Abraham Granott	
Belarus	Babruysk		1932	1898 - 1976	-	Eliyahu Dobkin	
Lithuania	Vilna		1938	1918 - 2003	- Ber Kovner	Meir Wilner	
Poland	Vaukavysk		1947	1906 - 2002	-	Zerach Wahrhaftig	
Lithuania	Kaunas		1935	1903 - 1991	- Rosenblum	Herzl Vardi	
Ukraine	Odesa		1919	1888 - 1982	- Kagen	Rachel Cohen	
Poland	Brody		1938	1910 - 1991	-	Kalman Kahana	
Yemen	?		1909	1904 - 1990	-	Saadia Kobashi	
Poland	Gora Kalwaria		1940	1893 - 1971	-	Yitzchak Meir Levin	
Denmark	Copenhagen		1934	1904 - 1995	-	Meir David Loewenstein	
Poland	?		1925	1906 - 1968	-	Zvi Luria	
Ukraine	Kiev		1921	1898 - 1978	- Mabovitch Meirson	Golda Meir	
Poland	Warsaw		1925	1884 - 1968	- Refalkes	Nachum Nir	
?	?		?	1900 - 1978	- Moses Hirsch	Zvi Segal	
Moldova	?		1913	1875 - 1962	- Fishman	Yehuda Leib Hacohen	
Hungary	Sopron		1925	1895 - 1952	-	David Zvi Pinkas	
Belarus	Narochivichi		1914	1901 - 1964	-	Aharon Zisling	

Belarus	Pinsk	1932	1911 - 1989		
Belarus	Minsk	1920	1891 - 1952	- <u>Kolodny</u>	<u>Moshe Kol</u>
Belarus	Bobruisk	1924	1906 - 1978	-	<u>Eliezer Kaplan</u>
Germany	Berlin	1926	1887 - 1978	- <u>Katznelson</u>	<u>Abraham Nissan</u>
Belarus	Kopys	1913	1886 - 1951	<u>Felix Rosenblueth</u>	<u>Pinhas Rosen</u>
Ukraine	Ruzhyn	1920	1902 - 1989	- <u>Drabkin</u>	<u>David Remez</u>
Galicia	?	1924	1904 - 1964	-	<u>Berl Repetur</u>
Ukraine	Czernowitz	1940	1894 - 1962	-	<u>Mordekhai Shattner</u>
Palestine	Teberias	-	1895 - 1967	-	<u>Ben Zion Sternberg</u>
Belarus	Grodno	1925	1902 - 1970	- <u>Chaim</u>	<u>Bechor Shitreet</u>
Ukraine	Kherson	1906	1894 - 1965	- <u>Shertok</u>	<u>Moshe Shapira</u>
					<u>Moshe Sharett</u>

الجدول (3)

فترة الرئاسة	الجنود	علم الهجرة	المدينة	الموطن الأصلي	فترة الحياة	الرؤساء	الاسم الأصلي	الاسم
1949 - 1952		1937	Motol/Pinsk	Belarus	1874 - 1952		Shimshelevitz	Chaim Weizmann
1952 - 1963		1907	Poltava	Ukraine	1884 - 1963		Robshov	Yitzhak Ben-Zvi
1963 - 1973		?	Mir/ Minsk	Belarus	1889 - 1974		Katchalsky	Zalman Shazar
1973 - 1978		1925	Kiev	Ukraine	1916 -			Ephraim Katzir
1978 - 1983	Morocco			Palestine	1921 -			Yitzhak Navon
1983 - 1993		1935	Belfast	N. Ireland	1918 - 1997			Chaim Herzog
1993 - 2000	Belarus		Tel Aviv	Palestine	1924 - 2005			Ezer Weizman
2000 - 2007		1951	Yazd	Iran	1945 -			Moshe Katsav
2007 -		1933	Vishneva	Belarus	1923 -		Persky	Shimon Peres
رؤساء الوزراء								
		1906	Plonsk	Poland	1886 - 1973		Gruen	David Ben-Gurion
		1906	Kherson	Ukraine	1894 - 1965		Sherok	Moshe Sharett
		?	Oratovo	Ukraine	1895 - 1969		Shkolnik	Levi Ashkol
	?	-	Kefar Tavor	Palestine	1918 - 1980		Paicovitch	Yigal Allon
		1921	Kiev	Ukraine	1898 - 1978		Mabovitch	Golda Meir
	Ukraine	-	Jerusalem	Palestine	1922 - 1995		Rubitzov	Yitzhak Rabin
		?	Plonsk	Poland	1913 - 1992			Menachem Begin
		1935	Ruzinoy	Poland	1915 -		Yzemitzky	Yitzhak Shamir
		1933	Vishneva	Belarus	1923 -		Persky	Shimon Peres
	Lithuania	-	Tel Aviv	Palestine	1949 -		Milkosky	Benjamin Netanyahu
	East Europe	-	Mishmar HaSharon	Palestine	1942 -		Brog	Ehud Barak
	Russia	-	Kfar Malal	Palestine	1928 - ?		Arik Scheinerman	Ariel Sharon
	Ukraine	-	Binyamina	Palestine	1945 -			Ehud Olmert

الجدول (4)

الوزارة الموقاة P

المشاركة في الوزارات

تسلسل الوزارات	الهجرة	المدينة	الموطن	الاسم
p,1,2,3,4,5,6,7,8	1906	Plonsk	<u>Poland</u>	ديفيد بن غوريون (Gruen)
p,1,2,3,4,5,6,7,	1906	Kherson	<u>Ukraine</u>	موشيه شاريت (Shertok)
p,1,2,3,4,5,6,7,8	-	Tiberias	<u>Palestine</u>	بهور شالوم شيريت
P,	1933	Warsaw	<u>Poland</u>	اسحق غرينباوم (Gruenbaum)
p,1,2,3	1920	Minsk	<u>Belarus</u>	إليزار كابلان
p,1,2,4,5,6,7,8	1926	Berlin	<u>Germany</u>	بنحاس روزن (Felix Rosenblueth)
p,1,2,3,4,5,6,7,8	1925	Grodno	<u>Belarus</u>	موشيه شاپيرا (Chaim)
p,1,2,3	1940	Gora Kalwaria	<u>Poland</u>	اسحق ماير ليفين
P,4,5,	1936	Meiningen	<u>Germany</u>	بيريز بيرنشتاين (Shlomo Fritz)
P,7,8	1920	Grodzisk	<u>Poland</u>	مردخاي بينتوف (Gutgeld)
P,	1914	Narochewichi	<u>Belarus</u>	أهارون تسيزلنيغ
p,1,2	1913	Kopys	<u>Belarus</u>	ديفيد ريميس
p,1,2	1913	?	<u>Moldova</u>	يهودا هاتوهرين (Fishman)
3,4,5,6,7,8	1914	Oratovo	<u>Ukraine</u>	لوفي إشكول (Shkolnik)
1,2,3,4,5,6,7,8	1921	Kiev	<u>Ukraine</u>	غولدا ماير (Mabovitch)
1,	1924	Minsk	<u>Belarus</u>	زالمان شازار (Shneur Zalman Rubashin)
1,2,3,4,5,6,	1918	Montreal	<u>Canada</u>	دوف يوسف (Bernard Joseph)
2,3,4,5,	1929	Kopychintsy	<u>Ukraine</u>	بنحاس لافون

2,	?	?	Yaakov Geri (Meyer)	ياكوف غري
3,4,5,6,7,8	1939	Dresden	Yosef Burg	يوسف بورغ
3,	1925	Sopron	David Zvi Pinkas	ديفيد زفي بينكاس
3,4,5,6,7,8	1933	Berlin	Peretz Naftali (Fritz)	بيريتس نافتالي
3,	?	?	Haim Cohen	حاييم كوهين
3,	1947	?	Mordechai Nurock (Max)	مورداخاي نوروک
3,4,5,6	1921	?	Ben Zion Dinor (Dinaburg)	بن - زيون دينور
4,5,	-	Jaffa	Israel Rokach	إسرائيل روكاخ
4,5,	1933	Bialistok	Yosef Serlin	يوسف سيرلين
4,5,	-	Jaffa	Yosef Sapir	يوسف سابير
5,6,7,8	1926	?	Zalman Aran (Aranne)	زلمان آران
7,8	1926	Konotop	Israel Bar-Yehuda	إسرائيل بار - يهودا
7,8	1934	?	Israel Barzilai	إسرائيل بارتسيلي
7,8	1920	Bobruisk	Kadish Luz (Luzinsky)	كاديش لوتس
7,8,	1929	Suwalki	Pinhas Sapir (Kozlowski)	بنحاس سابير
7,8,	1924	Minsk	Moshe Carmel	موشيه كارمل
7,8	1924	?	Mordachai Namir (Nemirovsky)	مورداخاي نامير
8,	?	?	Yaakov Moshe Toledano	ياكوف موشيه تولدانو

الجدول (5)

أول كنيسيت اسرائيل 1949
أسماء الأعضاء وموظفيهم

ألمانيا	بلاروسيا	أوكرانيا	بولندا	روسيا
Peretz Bernstein	Yosef Efrati	Zalman Aran	Menahem Bader	Moshe Aram
Yosef Burg	Eliezer Kaplan	Meir Agrov	Yohanan Bader	Aryeh Bahir
Yeshayahu Forder	Yaakov Klivnov	David Bar-Rav-Ha	Aryeh Ben-Eliezer	Menahem Begin
Peretz Naftali	Haim Shapira	Israel Bar-Yehuda	David Ben-Gurion	Chaim Ben-Asher
Pinhas Rosen	Yitzhak Tabankin	Yitzhak Ben-Zvi	Mordechai Bentov	Herzel Berger
Hanan Rubin	Aharon Zisling	Yosef Beretz	Eliyahu Ganchovsky	Yaakov Chazan
Moshe Unna		Shmuel Dayan	Avraham Golrat	Rachel Cohen-Kagan
	غالبيا	Ben-Zion Dinor	Aharon Greenberg	Hasya Drori
النمسا	Uri-Zvi Greenberg	Israel Galili	Netta Harpaz	Yechiel Duvdevani
Eliezer Preminger	Kalman Kahana	Shraga Goren	Abba Hushi	Heshel Frumkin
بنجوا	Yosef Lamm	Akiva Govrin	Fayge Ilanit	Avraham Granot
Dov Bar-Nir	Pinhas Lavon	Avraham Herzfeld	Moshe Kelmer	Israel Guri
الدنيمارك	Meir Yaari	Beba Idelson	Haim Landau	David Hacoheh
Meir Levenstein		Yona Kesse	Shlomo Lavi	Ari Jabotinsky
اليونان	ليثونيا	Golda Meir	Yitzhak Levin	Yitzhak Kanav
Avraham Rakanti	Hillel Kook	Shmuel Mikunis	Eliezer Livna	Eliyahu Lankin
كندا	بيساريبيا (مولدوفا)	Devorah Netzer	Eliyahu Mazor	David Livschitz
Dov Yosef	Ada Maimon	Shoshana Parsitz	Yaacov Meridor	Yehuda Maimon
جنوب أفريقيا	لافتيا	Beryl Raptor	Benjamin Mintz	Baruch Osnia
Samuel Katz	Rafael Bash	Moshe Sharett	Nahum Nir	Esther Raziell-Naor
	Mordechai Nurock	Ephraim Taburi	Eliezer Peri	David Remez
		Zvi Yehuda	Yaakov Riftin	Zalman Shazar
			Yosef Serlin	Aryeh Sheftel

الصرى	رومانيا	هنغاريا	موسه سنيه مير ويلنر ناتان يلين-مور	جوسيف سبرينزك ييهوديت سيمهوني جينا تافيرسكى زيراخ وارهافتيغ
			اليمن	فلسطين الانتداب
			هايم كوهين-ميجوري زىشاريا جلوسكا أبراهيم تافيف يسرائيل يشايياهو	أمي آساف موسه بن-أمي مناهم كوهين إلياهو إليشار أبراهيم إلماليتش ياكوف جيل إلياهو هاعارميلي ييزهار هاريري مناهم راتزون إسرائيل روكاخ يوسف سافير أبراهيم شاج بيخور شيتريت ييزهار سميلانسكى

الجدول (6)

أولاد الشتيتل والعدوانية

لن أتناول هنا عدوانية أولاد الشتيتل تجاه الفلسطينيين خاصة والعرب عموماً . فمشاهد وأخبار القتل والتدمير التي نتابعها كل يوم في وسائل الإعلام المختلفة تغني عن كل حديث . ولعل من الأجدي التعرف على عدوانيتهم تجاه أصدقائهم وحلفائهم قبل أعدائهم العرب . الوقائع الممتدة عبر التاريخ تشير إلى أن كل ما هو غير يهودي هو معاد وفق المنظور التوراتي والتلمودي . فلقد سبق أن أشرت إلى نماذج لدور الفوضويين من يهود حدود المستوطنة في عمليات القتل والتفجير والإرهاب بعد وصولهم كمهاجرين جدد إلى شواطئ الولايات المتحدة مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وكان هذا هو أول ثمن دفعه الأمريكيون لقاء تعاطفهم مع معاناة أولاد الشتيتل في روسيا القيصرية .

ثم ماذا عن بريطانيا التي وعدتهم بالوطن القومي ودعمتهم في مؤتمرات السلام وفي المحافل الدولية وسهّلت هجرتهم إلى فلسطين في فترة الانتداب ؟ فبعد اغتيال وسيط الأمم المتحدة الكونت فولك برنادوت في أيلول \ سبتمبر 1948 وتعيين خليفة له في فلسطين رالف بننتش ، أعدّ خبراء الأمم المتحدة تقريراً للوسيط الجديد حول الأعمال الإرهابية التي جرت في فلسطين ما بين الأعوام 1944 \ 1948 على يد العصابات اليهودية المسلحة ¹¹³ . يتضمن التقرير 259 عملاً إرهابياً موجهاً نحو الإدارة المدنية وقوات الانتداب البريطانية . القائمة التالية تمثل عينة بسيطة من هذه الأعمال مصنفة تبعاً لطبيعتها :

1- الاغتيال السياسي

- 6 \ 11 \ 1944 ، القاهرة . تم اغتيال اللورد موين ، الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط وسائقه أمام مقر إقامته . وقد تم اعتقال كل من إياهو بت- تسورز و أياهو- هاكيم . اعترف القاتلان أمام المحكمة العسكرية العليا في القاهرة بأنهما عضوان في عصابة شتيرن ، التي كلفتها بالاغتيال كتحذير للبريطانيين بعدم التدخل بالهجرة اليهودية إلى القدس مستقبلاً ، وتم إعدامهما شنقاً في عام 1945 .

- 22 \ 5 \ 1948 ، القدس . أصيب توماس واسون القنصل الأمريكي العام في القدس بإصابات بالغة على يد قناص ينتمي إلى عصابة شتيرن كما أصيب موظفان آخران من القنصلية توفي أحدهما في اليوم التالي .

- 17 \ 9 \ 1948 ، القدس . قامت عصابة شتيرن باغتيال الكونت فولك برنادوت ، وسيط الأمم المتحدة في فلسطين . كما قتل في الهجوم الكولونيل الفرنسي أندريه سيرو ، أمر قوة الطوارئ الفرنسية التابعة لمجموعة مراقبة الهدنة . ويعزى سبب الاغتيال إعادة برنادوت 8000 لاجئ عربي تم طردهم من ثلاث قرى ، قرب حيفا ، من قبل الإرهابيين اليهود .

2- التفجيرات

22- 7\ 1946 ، القدس . تهدم الجناح الغربي لفندق الملك داوود في القدس وهو المقر الرئيسي العسكري البريطاني والمكاتب الحكومية من جراء عبوة ناسفة زرعتها عصابة الإرغون الإرهابية في قبو الفندق . وقد قتل نتيجة الانفجار 76 شخصاً وجرح 46 .

31- 10\ 1946 ، روما . أصيبت السفارة البريطانية بأضرار جراء عبوة ناسفة يعتقد أن الإرهابيين اليهود قد زرعوها ، وتبين لاحقاً أنهم من عصابة الإرغون .

- 12\ 1947 ، حيفا . قام أحد الإرهابيين باقتحام مخفر الشرطة المركزي بشاحنة محملة بالمتفجرات . وقد قتل جراء الانفجار أربعة شرطة وجرح 140 آخر . وقد أعلنت عصابة شتيرن مسؤوليتها عن التفجير¹¹⁴ .

- 28\ 3\ 1947 ، حيفا . فجرت عصابة الإرغون أنبوب النفط العائد لشركة نفط العراق .

3- السطو المسلح والابتزاز

- 14\ 9\ 1946 ، يافا . قام الإرهابيون اليهود بالسطو على ثلاثة مصارف في يافا وتل أبيب و قتلوا أثناء ذلك ثلاثة عرب .

- 2\ 11\ 1946 ، تل أبيب . اعتقلت الشرطة البريطانية 50 يهودياً في أحد مقاهي تل أبيب (للتحقيق) بعد أن تم نسف منزل لإحدى اليهوديات التي رفضت دفع أتاوة لعصابة الأرغون الإرهابية

- 26\ 11\ 1946 ، فلسطين . قام إرهابيون مسلحون من اليهود بالسطو على معملين للألماس في ناتانيا وتل أبيب وهربوا بعد نهب ألماس ونقد وسندات بقيمة 107000 دولار .

- 8\ 5\ 1947 ، تل أبيب ، تم إحراق ثلاثة محال تجارية ، رفض أصحابها اليهود دفع أتاوات لصالح المجموعات الإرهابية اليهودية .

- 4\ 8\ 1947 ، تل أبيب . تم السطو على بنك باركلي في تل أبيب من قبل إرهابيين يهود ونهب 5200 دولار . وقتل في الحادث أحد أعضاء الهاجانا .

4 - الرسائل المفخخة

- 4\ 6\ 1947 ، لندن . أرسلت عصابة شتيرن اليهودية رسائل مفخخة إلى مسؤولين كبار في الحكومة البريطانية ، من بينهم إرنست بفان وأنتوني إيدن وأتلي رئيس الوزراء وونستون تشرشل . وقد تم اكتشاف ثمانين رسالة تحتوي على مسحوق (الغليغنايت) المتفجر . وفي 6 حزيران ، تمكن اسكوتلانديارد من اكتشاف ما مجموعه 20 رسالة مفخخة .

- 4\ 5\ 1948 ، تل أبيب . أعلنت عصابة شتيرن مسؤوليتها عن إرسال رسائل مفخخة أدت إلى قتل الشقيق الأصغر لأحد الضباط في إنكلترا .

5 - مخابيء الأسلحة

¹¹⁴ Mike Davis , 1906 , The Poor Man's Air Force , A History of Car Bombs . يشير ديفيز ، في هذه المقالة ، إلى أن هذا الحادث يمثل تاريخياً الاستخدام الأول لسيارة عادية لنقل كميات كبيرة من المتفجرات إلى هدف هام . ويتعبير أدق ، فالسيارات المفخخة هي من نتاج الفكر اليهودي المعاصر .

- 1946 \ 7 \ 11 ، فلسطين . أعلن مسؤولون بريطانيون عن اكتشاف مخبأ كبير للأسلحة تحت الأرض في ميشيك باغور ، كما جرى تفتيش 27 مستعمرة
- 1946 \ 7 \ 31 ، تل أبيب . تم اكتشاف مخزون كبير من الأسلحة ومعدات تزوير وثائق ، إضافة إلى سندات حكومية مزورة - بقيمة مليون دولار- في أكبر كنيس يهودي في تل أبيب
- 1946 \ 8 \ 12 ، تل أبيب . في 1 آب ، اكتشف مخبأ ثاني للأسلحة في أحد المباني المدرسية
- 1946 \ 8 \ 30 ، فلسطين . تمكنت وحدات عسكرية بريطانية من اكتشاف مخبأ أسلحة وذخائر في المستعمرات اليهودية دوروت و روهاما

6 - الخطف والارتهان

- 1946 \ 6 \ 24 ، فلسطين . حذر راديو الإرغون ان ثلاثة ضباط بريطانيين مختطفين هم رهائن لديها مقابل عضوين من الإرغون ، يواجهان عقوبة الإعدام ، و 31 عضواً آخر قيد الاعتقال .
- 1947 \ 7 \ 30 ، فلسطين . أعلن إرهابيو الإرغون إعدام رقيبين بريطانيين شتقاً بعد أخذهما رهينتين ، في 12 تموز \ يوليو ، وذلك بسبب " الجرائم التي ترتكب (من البريطانيين) بحق المجتمع اليهودي . وقد تم العثور على الجثتين في اليوم التالي معلقتين على شجرة بالقرب من مدينة ناتانيا . وعند محاولة قطع حبل إحدى الجثتين ، انفجر شرك أدى إلى تمزيق الجثة .
- 1947 \ 1 \ 28 ، القدس . أطلقت قوى الأرغون سراح القاضي رالف ويندهام الذي كان قد اختطف في تل أبيب قبل يوم ، كما أطلقت الأرغون في 29 كانون الثاني سراح المصرفي كولينز الذي اختطف من منزله وتم ضربه بشكل مبرح .

7 - التخطيط للجرائم ضد الإنسانية

- 1947 \ 8 \ 5 ، فلسطين . في هجوم مبكر صباح هذا اليوم ، قامت قوى الأمن البريطانية باعتقال 35 قيادياً صهيونياً واحتجازهم في معسكر اللطرون وذلك في مسعى لتقويض قيادة الإرغون . ومن بين الوثائق التي تمت مصادرتها في الهجوم ، رسائل متبادلة مع عملاء روس في كل من إيطاليا وبلغاريا ومخططات تفصيلية لتسميم مصادر مياه الشرب في الجزء غير اليهودي من القدس بباكترييات الأنثراكس والботوليزم وغيرها (Anthrax , Botulism) .
- 1947 \ 9 \ 7 ، باريس . أحبطت الشرطة الفرنسية مؤامرة خططت لها عصابة شتيرن لمهاجمة لندن جواً بقنابل محلية الصنع بمساعدة طيار أمريكي . وقد أبلغ الطيار الشرطة بأن الحاخام باروخ كوريف وعضوة عصابة شتيرن الهنغارية جوديث روزنبرغر قد عرضا عليه القيام بهذه المهمة بسبب الإجراءات البريطانية ضد الهجرة غير الشرعية لليهود إلى فلسطين ؛ كما ألقت الشرطة الفرنسية القبض على تسعة آخرين من المخططين للعملية .

الأمر الملفت للنظر في تقرير الأمم المتحدة ، أن اليهود كانوا يسعون لإلصاق أعمالهم الإرهابية بالعرب الفلسطينيين عن طريق التكرار بالألبسة العربية عند تنفيذ العمليات ، وهي عادة ما انفكت إسرائيل تمارسها إلى يومنا هذا . وعلى سبيل المثال ، في عام 1938 ، قام عضو من الإرغون متتكرراً في زي حمّال عربي بوضع عبوة كبيرة من المتفجرات في وسط سوق عربي بحيفا . كما كلفت عصابة الإرغون راشيل أوهيفيت - عامي (حبشوش) بزرع عبوة متفجرة بالقرب من السجن المركزي في القدس . وقد طلبت راشيل ، المتكررة بحجاب شرعي ، من طفل عربي حمل سلتها المتفجرة والمغطاة

بالخضار والفاكهة إلى السجن . ويشرح يهودا لايبديوت في كتابه " مذكرات مقاتل من الإرغون " أن قائد عملية تفجير فندق الملك داوود كان متنكراً في زي نادل سوداني ، أما بقية المجموعة فكانوا يرتدون الألبسة العربية 115

الأمر الآخر الذي تمّ الكشف عنه هو مشاركة الهاجانا والإرغون وشتيرن في الأعمال الإرهابية ضد " أولياء نعمتهم " البريطانيين ، كل حسب طريقته . وقد تحوّلت هذه العصابات الثلاث ، كما هو معروف ، إلى جيش الدفاع الإسرائيلي الذي أخذ عنها مجتمعة هذا التراث الغني والمتنوع من الأعمال الإرهابية والانتقامية . وقد أشار إلى ذلك ميناحيم بيغن 116 بقوله : " في الحقيقة ، كان هناك توزيع للأدوار ؛ فمُنظمة ليهي (شتيرن) كانت تؤيد الأعمال الإرهابية الفردية . و منظمة الإرغون مارست العمليات الحربية بشكل دوري ؛ أما المنظمة الثالثة (الهاجانا) فكانت تعدّ نفسها لرمي ثقلها في معركة مصيرية " . وفي الواقع يمكن القول بأن المنسق الخفي لهذه العمليات الإرهابية والتخريبية ، سواء أكانت ضد البريطانيين أو ضد العرب الفلسطينيين ، لم يكن سوى رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين في فترة الانتداب ديفيد بن غوريون 117 ؛ فهو منسق ما عرف آنذاك بحركة المقاومة اليهودية المتحدة. وفي إطار البحث عن جذور أشهر قادة هذه العصابات الإرهابية الثلاث ، لم تكن النتيجة مفاجئة كما هو متوقع . فقد كان جميع هؤلاء من أولاد الشتيتلات الروسية . يشتمل الجدول (7) على قائمة مختصرة بأسماء هؤلاء تبعاً للمنظمات التي كانوا ينتمون إليها . ولقد استثنيت من القائمة أسماء بن غوريون ورابين وشارون (الهاغانا) ، بيغن (الأرغون) و شامير (شتيرن) لورود أسمائهم ومواطنهم في جدول رؤساء الوزارات .

Memories of an Irgun Fighter by Yehuda Lapidot 115

David Ben- Gurion : Wikipedia Encyclopedia 116

علينا التذكّر أن 70 عاماً تفصل ما بين مولد رجلين كان لهما أبلغ الأثر على الوضع السياسي في عالمنا العربي المعاصر 117
" بن غوريون " و " بن لادن " ؛ وأولهما أسبق !

عصابة الإرغون					
الدولة	المدينة القرية	الهجرة إلى فلسطين	مدة الحياة	الاسم الأصلي	الاسم
Ukraine	Odessa		1880 - 1940	<u>Vladimir</u>	<u>Zeev Jabotinsky</u>
Ukraine	Odessa		1903 - 1990	- <u>Silberg</u>	<u>Avraham Tehomi</u>
Russia	?	1937	1907 - 1977	-	Robert Bitker
Russia	Mariopol	1921	1890 - 1989	-	Moshe Rozenberg
Lithuania	Smorgon	1913	1910 - 1941	-	David Raziel
Poland	?	1932	1913 - 1995	-	Yaakov Meridor
Lithuania	?	1925	1915 - 2001	<u>Hillel Kook</u>	Peter Bergson
Poland	Grodno	1925	1919 - 1991	<u>Eitan</u>	<u>Yeruham Livni</u>
			1914 -	-	Eliyahu Lenkin
Lithuania	Vilna	1920	1913 - 1970	-	Aryeh Ben-Eliezer
Poland	Lotzk	1938	1910 - 1994	<u>Farshtei</u>	<u>Yaakov Tavin</u>
Russia	Piatygorsk	1912	1880 - 1920	-	Joseph Trumpeldor
عصابة شتيرن					
Poland	Suwalk	1925	1907 - 1942	Yair	Avraham Stern
Poland	Grodno		1913 - 1980	<u>Yellin Mor</u>	<u>Nathan Friedman Yellin</u>
Ukraine	Podvolochisk	1940	1910 - 1996	- <u>Sheib</u>	Israel <u>Eldad</u>
Ukraine	Lvov	1924	1896 - 1981	-	Uri Zvi Greenberg
عصابة الهاغانا					
Poland		1940	1909 - 1972	- <u>Kleinbaum</u>	Moshe <u>Sneh</u>
Belarus	Volkovysk		1893 - 1945	-	Eliyahu Golomb
Ukraine	Brailov	1914	1911 - 1986	- <u>Berchenko</u>	Yisrael Galili
Poland	Lublin	1920	1890-1952	-	Yitzhak Sadeh
Russia	?	1906	1894 - 1940		Dov Hoz
Ukraine	Kiev	1906	1891 - 1938		Haim Sturman

(الجدول 7)

لفهم الطبيعة العدوانية لأولاد الشتيتل علينا أن نعود إلى الوراء ثلاثة آلاف سنة . فقد تبين لأستاذ علم النفس النشوي كيفين ماك دونالد أن إحدى السمات الأخرى المميزة والمتأصلة لليهود هي العدوانية ¹¹⁸ . فقد أوضح في دراساته إلى أن التاريخ اليهودي القديم والمعاصر حافل بمظاهر عدوانيتهم تجاه الشعوب التي قهروها أو حلّوا فيها . وبالفعل ، يمكن تتبع هذه السمة في وصايا العهد القديم إلى بني إسرائيل وفي تعليمات وقوانين حاخاماتهم ومعلميهم التلموديين وصولاً إلى تصريحات قياداتهم السياسية الحالية . ولعل بعض الأمثلة المقتبسة من كتب التوراة ، وهي كثيرة فعلاً ، تلقي الضوء على هذه النقطة بالذات .

فوفق كتاب " العدد " (أحد كتب التوراة) ، طلب النبي موسى من بني إسرائيل محاربة المديانيين . وبعد أن قتل محاربوه كل ذكر منهم وأحرقوا مدنهم وأسروا نساءهم وأطفالهم ، أبدى موسى سخطه على قادة المحاربين لأنهم استحيوا نساء وأطفال المديانيين الأسرى . هكذا ورد أمر موسى لقادته : " 31 : 17 فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، واقتلوا كل امرأة ضاجعت رجلاً .. " وقد ثنى الكاهن أليعازار على كلام موسى باعتباره فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى لطهارة بني إسرائيل .. (21:31) .

ومن أوامر الرب لموسى قبيل عبور بني إسرائيل نهر الأردن إلى أرض كنعان ، أي فلسطين ، طرد الأهالي من أراضيهم : " 33 : 55 ولكن إن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم ، يصبح الباقون منهم اشواكاً في عيونكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم في الأرض التي انتم مقيمون فيها " وفي كتاب " يشوع " أمثلة أخرى يجدر التوقف عندها . فبعد موت موسى تولى قيادة بني إسرائيل يشوع بن نون وعبر بهم نهر الأردن إلى فلسطين . ففي وصف محاصرة مدينة أريحا والاستيلاء عليها ، يذكر الكتاب ما فعله اليهود بكل الكائنات الحية فيها : " 21:6 .. ودمروا المدينة وقضوا بحدّ السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير " .

وفي واقع الأمر ، فكل ما كان يمارسه يشوع وبني إسرائيل من عدوانية كانت تنفيذاً لأوامر " الرب يهوه " . ففي المدينة المستباحة التالية " عاي " كانت أوامر الرب لا لبس فيها : " 8:8 ولدى استيلائكم على المدينة تضرمون فيها النار كأمر الرب " و " 27:8 أما البهائم وغانم المدينة فقد نهبها الإسرائيليون لأنفسهم ، بمقتضى أمر الرب الذي أصدره إلى يشوع " 119 . وإذا كان هذا عقاب الأهالي ، فماذا عن عقاب ملوكهم ؟ لقد أمر يشوع قادته بأن يطأوا بأرجلهم رقاب الملوك ثم قام هو بقتلهم وتعليق جثثهم على الأشجار (يشوع 10: 24 - 26) . وكما فعل الرب بالكنعانيين ، لم يسلم البابليون من غضب وقسوة وسخط الرب في يوم الرب القادم حين " يمزق أطفالهم على مرأى منهم ، وتنهب بيوتهم ، وتغتصب نساؤهم " (إشعياء 13: 16) . وهناك العشرات من الأمثلة يمكن الرجوع إليها في كتب إستر (9 : 7-14) ونشيد دبورة وقائد جيشها باراك في القضاة (5 : 12-31) وغيرها .

ولا يقتصر الأمر على كتب العهد القديم ، بل يتجاوزه لتعليمات حكماء الحاخامات المدونة في التلمود . ففي السنهدريم (58b) نقرأ : " إذا ضرب وثني (المقصود غير اليهودي) يهودياً فهو يستحق الموت .. أما إذا قتل إسرائيلي سامري (أي فلسطيني من السامرة) فلا يعاقب بالإعدام (57a) .

ومن البديهي أن نتساءل هنا ، إذا كانت البشرية قد ألقت منذ الأزل قتل الأعداء في الحروب فهل يمكن فهم مغزى الدعوة لقتل الأطفال وطرد الأهالي من أراضيهم وإبادة الحيوانات من أبقار وأغنام وحمير

119 يتضح من هذين المثالين أن بهائم مدينة عاي كانت أوفر حظاً من بهائم أريحا !!

؟ هل هي فعلاً فروع الشريعة السماوية وأوامر الرب لأنبيائه ، أم أنها دعوات بشرية للإبادة الجماعية ؟

وإذا كان الدين الإسلامي يتهم بالعنف وفتوحاته تمت بحدّ السيف ، فماذا عن الدين اليهودي ؟ إن عقد مقارنة أولية لبعض الكلمات ¹²⁰ كما ترد في الشريعتين اليهودية والإسلامية لا بدّ أن تعطي جواباً لهذا الاتهام . وكما نلاحظ في الجدول (8) على سبيل المثال ، تتكرر كلمة السيف 400 مرة في العهد القديم ومرة واحدة في القرآن الكريم . وتتكرر كلمات الإبادة 95 مرة والقتل 79 مرة في العهد القديم مقابل 35 مرة و10 مرات في القرآن الكريم ، وعلى التوالي .

من هذه العينة المختصرة لفروض الشريعة اليهودية وتعاليم حكمائها ، يمكن القول بأن المهاجرين الجدد إلى فلسطين قد نهجوا في عدوانيتهم نهج أنبيائهم وأسلافهم (وفق ما ورد في كتبهم ومخطوطاتهم على مدى ثلاثة آلاف عام !) . وقد تنبّه المؤرخ البريطاني بول جونسون إلى ذلك عندما تساءل : " كيف يمكن لمناحيم بيغن أن يتردد في القيام بمثل هذه الأعمال الإرهابية وهو يعرف تماماً أن الأرض الموعودة لا يمكن الاستيلاء عليها من دون يشوع ؟ ألم يكن كتاب يشوع سجلاً مزعجاً عن المدى الذي يمكن لليهود المضي فيه لانتزاع الأرض التي كانت ملكهم بأوامر إلهية ؟ " ¹²¹ .

وتدلّ السير الذاتية لمعظم قيادات المهاجرين من حدود المستوطنة الروسية أنهم لم يدرسوا في المدارس الرسمية الروسية بل في المدارس العبرية (هيدر) أو المدارس الدينية اليهودية (يشيفا) ¹²² (وايزمان ، بن غوريون ، بيغن ، شامير ، إشكول ، شاريت ، شتيرن وغيرهم) ولا بدّ بالتالي من تأثرهم بالوصايا التوراتية والتلمودية . ولعلّ أبلغ دليل على مدى تغلغل هذه الوصايا في الأيديولوجية السياسية هو شعار عصاة شتيرن " السيف والكتاب (المقدس) جاء مرتبطين معاً من السماء " . هذا الارتباط ، كما يؤكد زعيمها أبراهام شتيرن : " لا ينكر على أخلاقيات اليهود ولا تقاليدهم استخدام الإرهاب كوسيلة في المعركة . فنحن بعيدين كل البعد عن أي تردد أخلاقي في المعركة الوطنية ، حيث لانرى أمامنا سوى أوامر التوراة التي هي أكثر التعليمات أخلاقية : إفن حتى الدمار ! "

أوامر التوراة الأكثر أخلاقية في قتل الأبرياء من البشر والحيوانات ، نجد صداها أيضاً لدى زئيف جابوتينسكي ، قائد الإرغون ، وهو يتساءل مخاطباً المقاتلين : " لا تعاقبوا الأبرياء ؟ .. ما هذا الإهراء سطحي ومنافق . في الحرب ، أي حرب كانت ، كل طرف فيها بريء ... فعندما تتدلع الحرب ، نطالب جميعاً بحصار بحري وبري لأراضي العدو لتجويع الناس و النساء والأطفال الأبرياء . إذ لا توجد

¹²⁰ لا تشتمل الكلمات المختارة على اشتقاقاتها (قاتل ، قتل أو مقتول) ، كما يجب التنويه إلى أنها ترد أحياناً في العهد القديم والقرآن بشكلها الإيجابي (لا تقتل) إلخ .. !!

¹²¹ A History of the Jews , Paul Johnson , 1987 , P.523
¹²² Heder, Yeshiva

حرب إلا وتجري ضد الأبرياء .. فإذا لم ترغبوا في أذية الأبرياء ستموتون . وإذا لم ترغبوا بالموت فأطلقوا الرصاص وكفوا عن الثرثرة ! "

وبعد ، أليست هذه هي العقيدة السياسية و العسكرية التي تبناها أبناء الشتيتل في فلسطين والعالم العربي وإلى يومنا هذا ؟ ألا تجسد هذه العقيدة مقولة هرتزل بأن إسرائيل ستكون قاعدة متقدمة للتحضر و للتمدن !!؟

Old Testament

كتب العهد القديم

hate الكراهية	sworc السيف	perish الإبادة	rob السرقة	destroy التخريب	slaughte الذبيحة	war الحرب	blood الدم	kill القتل	
3	6	1			1	1	11	5	التكوين
1	7	2		5		5	27	12	الخروج
2	7	1	1	4			88	20	التلاويين
1	9	5		6		31	15	7	العدد
9	8	8		25		9	22	6	التثنية
	18	2		6	2	17	5		يشوع
2	21	1	1	2	2	11	1	5	القضاة
	23	2	1	8	9	9	8	8	راعوث
1	16		1	9	3	9	8	4	صموئيل الأول
1	10			3	1	10	12	2	صموئيل الثاني
	7	1		6		8	13	3	الملوك 1
	11			1		24	4		الملوك 2
2	7			7	3	18	8	1	أخبار الأيام 1
1	1			2					أخبار الأيام 2
1	1	6		8	1				عزرا
	14	11		4		3	2		نحميا
28	18	17	1	23	1	7	15	1	أستير
9	3	8	2	6	1	2	7		أيوب
1		1		2		3			المزامير
									الأمثال
									الجامعة

السبب الثالث عشر ؟

وكما جاء في العهد القديم ، فقد أمر الرب يشوع و 12 سبطاً من أبناء إسرائيل ، بعبور نهر الأردن واحتلال أرض الكنعانيين . وما أن تمّ له ذلك ، قسّم يشوع الأرض¹²³ فيما بينهم . بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام ، أمر الرب وايزمان و سبطاً واحداً من أبناء الشتيتل ، بعبور نهر فيستولا واحتلال أرض فلسطين وأي موضع تطأه أقدام جنوده .

ويبقى هنا سؤال محير ، إذا كان الاثنتا عشر سبطاً هم من أبناء يعقوب (إسرائيل) ، فمن هو السبب الجديد ؟ من أين جاء أكثر من خمسة ملايين يهودي إلى بولندا وأوكرانيا وبلاروسيا وليتوانيا ؟ هل هم فعلاً أبناء إسرائيل أم أبناء الشتيتل ؟ هل هم ساميون أم آريون ؟

الإجابة على هذا السؤال ليست بهذه البساطة . فالعودة إلى التاريخ القديم أمر شائك ومعقد وتدور حوله العديد من النظريات والآراء المتناقضة . ومع ذلك ، فقد برزت نظرية مؤخراً حول جنور هؤلاء اليهود وأثارت جدلاً لكونها تمسّ أسس العرق السامي ومسألة العداء للسامية برمتها ، ذلك السيف اليهودي المسلط على رقاب شعوب العالم .

يعزو الكاتب اليهودي آرثر كوستلر ، في كتابه " السبب الثالث عشر " 124 ، أسلاف الغالبية العظمى من يهود بولندا وأوكرانيا وليتوانيا إلى قبائل عاشت في مملكة الخزر ؛ وهي مملكة سادت في القرن الثامن الميلادي على ضفاف نهر الفولغا ، مابين بحر قزوين والبحر الأسود . وقد اعتنق سكانها ، من قبائل الهون والمجر وغيرهم ، الدين اليهودي اقتداءً بملكهم بولان وحاشيته الملكية ، ثم هاجروا من مملكتهم غرباً إلى بولندا وما حولها بعد أن اجتاحتها جنكيز خان .

ما هو مثير أيضاً في كتاب كوستلر تركيزه على مسألة الشتيتلات اليهودية . إذ يذكر أن الخزر يبين المتهودين قد نقلوا معهم بعد هجرتهم إلى بولندا وغيرها البنية الاجتماعية التي كانوا يعيشون فيها والمتمثلة في الشتيتل ؛ والتي كانت تعبيراً عن حكم ذاتي محدود في إدارة شؤونهم (و تختلف نسبياً عن الغيتوهات - الحارات - اليهودية التي يعيش فيها اليهود في نطاق المجتمعات غير اليهودية) . هذه البنية الاجتماعية الفريدة من نوعها لم تتواجد أصلاً سوى في بولندا وليتوانيا ولاحقاً في حدود المستوطنة . ويستند كوستلر في رأيه هذا إلى المؤرخ اليهودي أبراهام بولياك : " بعد غزو المغول (من الشرق) انتقلت القرى السلافية باتجاه الغرب وانتقلت معهم شتيتلات الخزر اليهودية "

وقد علق أحد كبار النقاد على نظرية كوستلر بالقول : " إذا كانت هذه النظرية صحيحة فهذا يعني أن غالبية أسلاف اليهود لم يأتوا من (نهر) الأردن ولكن من (نهر) الفولغا ؛ ليس من (أرض) كنعان بل

¹²³ الأرض في نصوص العهد القديم : " كل موضع تطؤه بطون أقدام الأسباط وأحفادهم " ¹²⁴ The Thirteenth Tribe, Arther Koestler, 1976

من القوقاز ، والتي يعتقد أنها كانت في وقت من الأوقات مهد العرق الآري . وأنهم أقرب من الناحية الجينية إلى قبائل الهون والويغور والمجر من كونهم من بذور إبراهيم وإسحق ويعقوب " . وبتعبير آخر لا توجد علاقة تاريخية بين متهودي الشتيتلات وأرض الميعاد والهيكل أو إبراهيم ويعقوب . كما أن نظرية كوستلر تنسف فكرة العداء للسامية من أساسها .

لقد شكلت نظرية كوستلر الجديدة صفة قوية لغالبية اليهود . فالأشكينازيون منهم ، أي يهود شرق وأواسط أوروبا ، يشكلون أكثر من 80 % من يهود العالم (و 95 % من يهود أمريكا) . وتأكيد هذه النظرية وانتشارها تعني بالنسبة لهؤلاء فقدان أقوى سلاح بين أيديهم ، حقهم الإلهي في أرض الميعاد واستغلال العداء للسامية لإرهاب العالم . وكان لابد من الرد .

تطلب الرد على النظرية الخزرية (لليهودي) كوستلر حشد جيش من علماء البيولوجيا لإجراء بحوث جينية ونشوءية على الجماعات اليهودية في أرجاء العالم لتأكيد وحدتهم الجينية وليس الدينية فحسب . و رغم أن تقنيات الجينات وتفسير نتائجها لا تزال في مراحل مبكرة نسبياً ، كان الهدف هو توظيف النتائج العلمية التي يتم التوصل إليها سياسياً وإعلامياً في نقض نظرية كوستلر . ويمكن تلمس هذا الهدف من المقالات التالية :

- في التاسع من أيار \ مايو 2000 ، نشرت صحيفة النيويورك تايمز مقالة للكاتب نيكولاس ويد بعنوان " الكروموزوم (Y) يدلي بقصة الشتات اليهودي " يقول فيها : " تمكن البيولوجيون ، عن طريق تقنية جديدة تعتمد على كروموزومات (Y- الذكرية) من تتبع شتات الجماعات اليهودية ، منذ عام 586 قبل المسيح وصولاً إلى الجماعات اليهودية المعاصرة في أوروبا والشرق الأوسط .. لقد توصلت هذه الدراسات التحليلية إلى شهادات جينية بأن هذه الجماعات ، وعلى نطاق واسع ، احتفظت بهويتها الجينية بعيدة عن الشعوب التي عاشت بينها ؛ وتمثل بالتالي مؤشراً على ندرة الزواج المختلط بين اليهود والشعوب المضيفة أو اعتناق هذه الجماعات الدين اليهودي عبر القرون . وتنسجم هذه النتائج مع التاريخ والتراث اليهودي وتدحض النظريات التي تدعي أن الجماعات اليهودية تتكون في غالبيتها من المتحولين من ديانات أخرى ، أو أنهم من سلالة الخزريين ... ورغم بقاء اليهود الأشكيناز الطويل في أوروبا ، بقيت بصمتهم الجينية متميزة عن بصمات غير اليهود من الأوروبيين " .

- وكتب إيفان أورانسكي في مجلة فورورد يقول فيها : " .. تدحض دراسة نشرت (مؤخراً) مزاعم دراسات سابقة تفيد بأن اليهود المعاصرين هم بشكل رئيسي من سلالة المتحولين إلى اليهودية (متهودين) وبالأخص من الخزر .. " .

- أما ماكس غروس فينقل ، في مجلة فورورد (2002) ، عن أحد الباحثين قوله : " .. لقد توقّع معظم الباحثين وجود ترابط (جيني) بين اليهود الأشكناز وغير- اليهود من شعوب أوروبا الشرقية . لقد توقعوا أن يروا في دراساتهم نتائج أعمال العنف في أوروبا الشرقية (أي البوغرومات في حدود المستوطنة) عندما اغتصب الكثير من النساء اليهوديات وبالتالي توقعوا وجود ذرية أبائها ليسوا يهوداً من الناحية البيولوجية . "

وفي الواقع ، فقد تم إجراء العديد من البحوث الجينية في إسرائيل حول جذور اليهود . إلا أن أهم هذه البحوث وأوسعها كانت على المستوى الدولي وبإشراف يهودي خالص .

البحث الأول 125 قام به طاقم مكّون من 12 باحثاً موزعين على ستة دول ، ونشر في عام 2000 . كان على دافع الضرائب الأمريكي أن يدفع التكلفة الباهظة لهذا البحث . وقد تمت دراسة مجموعات من الكروموزومات لتقصي الجذور (الأبوية) لليهود الشتات ومقارنتها مع عينات غير- يهودية في أماكن جغرافية مشابهة (عينات ل 1371 ذكراً في أوروبا و شمال إفريقيا و الشرق الأوسط) . وقد توصل هؤلاء الباحثون إلى أن الجينات الأبوية للجماعات اليهودية في أوروبا و شمال إفريقيا و الشرق الأوسط تنتمي إلى سلالة شرق أوسطية . وهذا يدلّ على أن معظم الجماعات اليهودية بقيت منعزلة جينياً عن جيرانها من غير اليهود أثناء وبعد الشتات ، كما وأن طفراتهم هي الأقرب إلى الفلسطينيين والسوريين وبقية شعوب منطقة الشرق الأوسط .

ومع ذلك ، فالاستنتاج هذا لم يكن كافياً . فاليهودي الحقيقي ، من وجهة نظر دينية وتراثية ، يجب أن يولد من أم يهودية . وهكذا كان يجب متابعة البحوث الجينية في خط نسوي . وقد دلت بعض الدراسات المتفرقة إلى أن التاريخ الجيني للنساء لدى عدد من الجماعات اليهودية متنوع وناجم في الغالب من الزواج المختلط بين الرجال اليهود ونساء غير - يهوديات في أوروبا ، وبالتالي لا يمكن تحديد مصدر نشأتها . وهكذا ، كان لابد من إجراء بحث أوسع هدفه إثبات أن يهود أوروبا الوسطى والشرقية ، الأشكناز ، هم فعلاً شرق أوسطيون . وبالفعل ، تم إنجاز هذا البحث الشامل 126 في عام 2006 ، وشارك فيه 20 باحثاً في ثمانية معاهد مختلفة حول العالم وموّل بشكل رئيسي هذه المرة من بعض دول الاتحاد الأوروبي . ودلّت نتائج تحليل التسلسل التعاقبي لنوع من الحمض النووي ، المكتسب من الطرف النسوي (الأمهات) ، أن حوالي أربعين بالمئة من اليهود الأشكناز ، والمقدر عددهم بثمانية ملايين في العالم ، يحملون بصماتهم الوراثية من أربع نساء نشوئيات فقط " يَرَجَح " كونهن يهوديات \

125 Jewish and Middle Eastern non-Jewish populations share a common pool of Y-chromosome biallelic haplotypes , M.F. Hammer et al. , PNAS, 2000

The Matrilineal Ancestry of Ashkenazi Jewry, Doron M. Behar , 2006 126

شرق أوسطيات ، نظراً لعدم وجود دلائل تشير إلى أنهم من جذور " قوقازية ! " (وهي إشارة إلى الخزيين) .

ورغم فشل النتائج العلمية التي توصل إليها هذا البحث المُكَلِّف في إثبات الجذور النسوية الشرق أوسطية لأولاد الشتيتل الأشكناز ، أصرّ الإعلام على رأي المؤرخين اليهود : " لقد انتقل الأشكناز من الشرق الأوسط إلى إيطاليا ومنها إلى شرق أوروبا ، حيث تكاثرت أعدادهم في القرن الثالث عشر .. " 127 .
أو كما جاء في كتاب جديد يحمل عنوان " أولاد إبراهيم : العرق و الهوية و- د ن ا- للشعب المختار " 128 : " لقد تبين أن الأشكينازيين جاؤوا إلى شمال وشرق أوروبا بشكل رئيسي عبر إيطاليا ، وقصة بلاد الخزر ما هي إلا هراء .. " .

ومن يدري ؟ ، فلربما تثبت الأيام القادمة أن أولاد الشتيتل هم فعلاً أولاد الخزر ، فلا حرج في أن يبدّل هؤلاء بغمضة عين مصطلح " معاداة السامية " إلى " معاداة الخزرية " . ولم لا ، فتبديل الأسماء والهوية والجنسية والعلم والبندية وحتى التاريخ صفة ملازمة لهؤلاء . فإذا كانت الأوكرانية غولدا مابوفيتش في عام 1898 ، لم تجد حرجاً في أن تصبح الأمريكية غولدا مايرسون في عام 1917 و الإسرائيلية غولدا مائير في عام 1948 . كما لم تجد حرجاً في تحية ثلاثة أعلام مختلفة خلال حياتها . وفي سياق مشابه بدّل أيضاً العديد من رفاقها في شتيتلات حدود المستوطنة جلودهم . وهكذا ، أصبح روبيتسوف رابين ، ويرنيتسكي شامير ، وبيرسكي بيريز ، وبروغ باراك وليس آخراً ، أصبح أريك شاينيمان .. أريل شارون .

عندما استوقفتني في البداية مقولة الفيلسوف يوهان غوتليب فيشته : " وإنني لا أرى وسيلة أخرى لحماية أنفسنا منهم إلا بالاستيلاء على أرض ميعادهم ومن ثم ترحيلهم إلى هناك " ، وجدت أن مقولته هذه تصلح في كل زمان ومكان وحتى في عصرنا الحاضر . ولا حرج على الفلسطيني المضطهد والمشرّد في أرضه أو من أرضه ، أن يستبدل في هذه المقولة كلمة " هناك " بكلمة " الشتيتلات " أو " بلاد الخزر " .

mhs

5 / 2008

BBC News , 14 January, 2006 127

Abraham's Children : Race, Identity, and the DNA of the Chosen People , Jon Entine , 2007 128

أولاد الشتيتل

من حُدود المُستوطنة
إلى فلسطين



د. حازم صابوني

